نظرية الانسجام

واثرها في الظاهرة البشرية

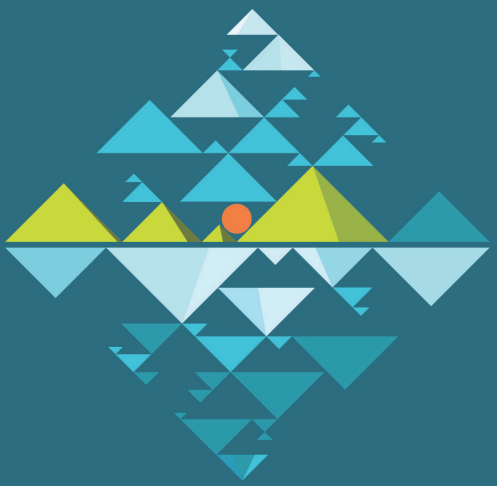

علي اياد

دار المرتضى

نظرية الانسجام

واثرها في الظاهرة البشرية

تأليف
علي اياد

دار المرتضى

نظرية الانسجام

واثرها في الظاهرة البشرية

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٧
الفصل الأول : مبادئ الانسجام	٩
المبحث الأول: الماهية والبعد التكويني	٩
المبحث الثاني: الأبعاد والحدث	١٩
الفصل الثاني: الظاهرة البشرية	٣٣
المبحث الأول: بيئة الظاهرة	٣٣
المبحث الثاني: طبيعة الظاهرة المتفردة	٤٣
الفصل الثالث: طبيعة سلوك النظام السياسي	٥١
المبحث الأول: البعد الثالث (وهم الغاية) (الثورة الفرنسية)	٥١
المبحث الثاني: البقاء للأقوى (الحركة النازية)	٧٥
المبحث الثالث: الانسجام (الديمقراطية)	٨٩
الخاتمة	٩٦
المصادر	٩٧

المقدمة

في الحقيقة إن نظرية الانسجام لم تكن موضوع دراستنا منذ البداية فقد كان الموضوع شيئاً مقاربا لكنه لم يكن تنظيرا, كنت اكتب ما يدور بخاطري من تأمل في الصراعات والفوضى العالمية للأنظمة السياسية التي تكاد تعصف بالكوكب اجمع , وكيف تتصارع هذه الأنظمة ألتي يمثلها أشخاص فيما بينها , سرا وعلانية , وكيف يعتبرون الميكافيلية وأمثالها هي السياسة الحقيقية؟ ما هي القاعدة أو الأساس الذي استندوا عليه للأخذ بهذا الفكر؟ وهل هذا الأساس سليما ؟ إذا كان سليما فلم كل هذا الشقاء؟ وهل يمكن أن نعتبر الشقاء مقياس لصحة أو عدم صحة هذا الأساس؟ هل هناك رؤية واضحة المعالم للنتائج؟ هل هذه الفوضى تحت السيطرة أم هي في الحقيقة خارجة عنها ؟ .

وعند محاولات لتحليل أو(تفسير) لهذه التساؤلات وجدت نفسي في متاهة لا يمكن للإنسان أن يرى شيئا فيها ولا يمكننا أن نسمي تلك المتاهة معقدة لأنها ابعد من ذلك, هي في الحقيقة تفوق قدراتنا العقلية بكثير وتقع خارج حدود العقل مستحيلة المنال, نشاهد منها فقط أجزاء صغيره غاية في الصغر دون القدرة على استيعابها, أن استيعابها يجعل من المستقبل لا معنى له لأنه يجعل من حاضرنا ومستقبلنا واحد, حيث يتساوى الاثنان معا في اللحظة التي ندرك فيها تلك الصورة الكلية, تلك هي حركة الظواهر لا يمكن إدراكها بصورة كلية وشاملة وإنما ندرك منها جزئيات غاية في البساطة , كتمدد الحديد بالحرارة وخلط بعض العناصر, حتى وان توصلنا إلى بعض الصور المعقدة فهي في الحقيقة لا تساوي شيئا أمام الصورة

الكلية.

فكنت تائها عدة سنوات ابحث عن وسيلة انظر من خلالها إلى العالم من زاوية مختلفة, وبعد مدة من البحث عن أجوبة لهذه التساؤلات توصلت إلى هذه النظرية التي أسميتها الانسجام والتي أصبحت دليلي وعسى أن تكون دليل القارئ أيضا في النظر إلى العالم من تلك الزاوية .

ولكنني هنا لا أقول أن نظرية الانسجام تمكننا من إدراك تلك الصورة الكلية أبدا لأن تلك الصورة كما ذكرنا هي خارج نطاق قدراتنا وإنما النظرية تمكننا من أن ننظر إلى تلك الحركة بطريقة مختلفة إن نظرية الانسجام هي نظرية عامة تحاول تفسير الظواهر الطبيعية و علاقتها فيما بينها ، و هي محاولة لتفسير أسباب وجودها و أسباب انهيارها ، و ما يؤدي إلى دوام بقائها و تطورها .

لقد تناول الفصل الأول من الكتاب و هو في مبحثين : مبادئ الانسجام وهي خطوط عريضة لنظرية الانسجام تقوم على وضع الفرضيات .

في المبحث الأول : تكون من خلال النظر في البعد التكويني للظاهرة وعناصر التركيب التي تشكل ماهيتها ، و طبيعة تلك العناصر في تركيبها التي تنعكس في طبيعة الظاهرة .

و في المبحث الثاني : تكون من خلال النظر في أبعاد الظاهرة الأربعة : (الغاية ، الإرادة ، القانون ، الطاقة) ، و طبيعة سلوك الظاهرة و المجال الذي تشغله ، و ما هي أسس حركة تطورها .

أما الفصل الثاني وهو في مبحثين : فقد تناول تطبيق نظرية الانسجام على الظاهرة البشرية .

فـفي المبحـث الأول : تم تسـليط الضـوء عـلى بيئـة الظاهـرة و حركتهـا الجغرافيـة ، و مـاهي الظـروف البيئيـة الـتي تواجـدت فيهـا الظاهـرة البشريـة ، و ظـروف انعدامهـا ، و مـا هـي أسـباب ذلك الوجـود و العـدم .

و في المبحـث الثـاني : نسـلط الضـوء عـلى الطبيعـة المتفـردة للظاهـرة البشريـة عـن بقيـة الظواهـر الطبيعيـة الأخـرى .

أمـا الفصـل الثالـث وهـو في ثلاثـة مباحـث : تنـاول فيهـا طبيعـة سـلوك النظـام السـياسي الـذي قسـم إلى ثلاثـة أشـكال لحركـة السـلطة السياسـية و هـي (وهم الغايـة ، القـوة ، الانسجـام) و في الحقيقـة أن جميـع هـذه الأشـكال متداخلـة فيمـا بينهـا بنسـب متفاوتـة ، و أن التبايـن الـذي أدى إلى هـذا التقسـيم يعـود بالأسـاس عـلى الشـكل الغالـب لسـلوكيات السـلطة .

الفصل الاول
مبادئ الانسجام

المبحث الاول

الماهية والبعد التكويني

انا افكر إذاً انا موجود

في القرن الخامس قبل الميلاد ظهرت الحركة السوفسطائية، وكان اسم ((سوفيسطوس)) يدل في الأصل على المعلم في أي فرع كان ، وبنوع خاص على علم البيان ، ولكنهم اشتهروا بالمغالطات المنطقية ، حيث كانوا يفاخرون بتأييد القول الواحد ونقيضه على السواء ، وبإيراد الحجج الخطابية في مختلف المسائل والمواقف .

وقد وضع غورغياس[١] أحد أبطال هذه المدرسة كتابا((في اللاوجود)) قصد به إلى التمثيل لفنه وتفوقه في الجدل، وتتلخص أقوله في قضايا ثلاث؛ الأولى: لا يوجد شيء. الثانية: إذا كان هناك شيء فالإنسان قاصر عن إدراكه. الثالثة: إذا فرضنا أن إنساناً أدركه فلن يستطيع أن يبلغه لغيره من الناس.[٢]

استمرت السوفسطائية عبثها في الفلسفة مستغلة في ذلك عدم وجود ركائز أساسية للعلم وتضارب الآراء الفلسفية، وكان هذا نتيجة لعدم وعي وتبلور الفلسفة آنذاك .

حتى ظهور سقراط وأفلاطون وأرسطو، فكانت لهم مواقف مضادة.

---

(١) هو أحد أشهر السوفسطائيين في أثينا ولد في القرن الخامس ق.م في جزيرة صقلية وتنسب إليه عدة خطب لم يبق منها إلا شذرات .

(٢) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية : ص٦٣ ,

فوضع أرسطو للكشف عن مغالطات السفسطة وتنظيم الفكر الإنساني منطقه المعروف، وخلاصة مذهبه في نظرية المعرفة: أن المعلومات الحسية والمعلومات العقلية الأولية والثانوية التي تكتسب بمراعاة الأصول المنطقية, هي حقائق ذات قيمة قاطعة.[١]

قامت بعد ذلك مواجهات عدة بين الاتجاهين المتعارضين؛ بين اتجاه المغالطات السوفسطائية, واتجاه المنطق الأرسطي, مما مهد الظروف لولادة اتجاه ثالث حاول التوفيق بين الاتجاهين , وكان هذا الاتجاه يتمثل في مذهب الشك الذي يعتبر (بيرون) من المؤسسين له .

وأورد (بيرون)[٢] حججه العشرة المعروفة على ضرورة الشك المطلق, حيث يرى أن كل قضية تحتمل السلب والإيجاب بقوة متعادلة .

إلا أن المنطق الأرسطي هو من ساد في نهاية الأمر. وتمكن بحججه العقلية القضاء على التعاليم الزائفة للسوفسطائية, واخمد معه تيارات الشك لعدة قرون, واستمر في ذلك حتى بداية النهضة الأوربية , حيث نشطت العلوم والمعارف وظهرت نظريات علمية جديدة كان لها كبير الأثر على انبعاث مذاهب الشك من جديد.

---

(١) محمد باقر الصدر ـ فلسفتنا : ص128, .

(٢) فيلسوف يوناني ولد في القرن الرابع ق.م, يعتبر مؤسس مذهب الشك الإغريقي .

فظهـرت العديـد مـن المذاهـب الفلسـفية ونظـرت في قضايـا عـدة فمنهـا مـن اتفـق بجانـب واختلـف بآخـر ومنهـا مـن تنافـر بشـكل تـام.

ديكـارت

يعـد ديـكارت مـن مؤسـسي النهضـة الفلسـفية فـي أوروبـا, قـام بإنشـاء فلسـفة جديـدة تحـاكي مقتضيـات عصره , فبدأ فلسـفته بالشـك كركيـزة أساسـية يبـني عليه أفـكاره, فـكان الشـك أهم أدوات ديـكارت في بنـاء فلسـفته, ذاك الشـك الـذي يقتلـع جميـع الحقائـق والأفـكار. لأن إحساسـاتنا بإمكانهـا أن تخدعنـا وأفكارنـا متضاربـة , فاتخـذ ديـكارت مـن الشـك ركيزة أو نقطـة يتـكأ عليهـا. ((يقـول ديـكارت: ولكنـي في هـذه الحالـة من الشـك المطلـق أجـد شـيئاً يقـاوم الشـك, فأنـا اسـتطيع الشـك في كل شـي ماخـلا شـكي, ولـما كان الشـك تفكيراً فأنـا أفكر, ولـما كان التفكير وجـودا فأنـا موجـود: ((أنـا أفكـر وإذن فأنـا موجـود)). تلـك حقيقـة مؤكـدة واضحـة متميـزة خرجـت لي مـن ذات الفكـر, لهـا مـيزة نـادرة هـي أن أدرك فيهـا الوجـود والفكـر متحديـن اتحـاداً لا ينفصـم. ومهـما يفعـل الـروح الخبيـث, فلـن يسـتطيع أن يخدعـني فيهـا؛ لأنـه لا يسـتطيع أن يخدعـني إلا أن يدعـني أفكـر. وإذن, فأنـا أتخـذ هـذه الحقيقـة مبـدأ أولا للفلسـفة)).[١]

(١) يوسف كرم ـ تاريخ الفلسفة الحديثة : ص64,
.

الماهية والبعد التكويني

ان كل موجود هو ظاهرة ولكل ظاهرة ماهية .

الماهيــة : هي عنـاصر الظاهـرة , أي تلـك العنـاصر الـتي اجتمعـت لتكويـن الظاهـرة و**الظاهـرة** : هـي البعـد التكويـني لتلـك العنـاصر .

ان ١+١=٢ ان الـ(٢) هي الظاهـرة وهـي بعـد جديـد تكـون مـن اجتمـاع عنصريـن بقانـون معـين وماهيـة الـ(٢) هـي ١+١ حيـث تكونـت صـورة اخـرى عـن صـورة العنـاصر متفرقـة فـأن البعـد التكويـني لـ(١+١) هـو (٢) .

وتمتـاز كل ظاهـرة بالتفـرد في تركيبهـا فهـي لاتشـبه غيرهـا مـن الظواهـر مطلقـاً ، فلـكل ظاهـرة طبيعتهـا الخاصـة الـتي تميزهـا عـن غيرهـا ، فهـي تختلـف مـن حيـث الغايـة والطاقـة والقانـون تبعـاً لطبيعـة تركيبهـا و وفـق طبيعـة عناصرهـا في التكويـن ومقـدار تلـك العنـاصر في التركيـب . وعليه فـأن وجـود ظاهـرة يعـني وجـود عنـاصر تكويـن ، والعلاقـة بينهـما هـي علاقـة وجوديـة. وان طبيعـة الظاهـرة مكتسـبة مـن طبيعـة عناصرهـا ومقـدار تركيبهـا وتختلـف طبيعتهـا عـن طبيعـة احـد عناصرهـا , ان في مشـاهدتنا السـاذجة للظواهـر فأننـا نـرى البعـد التكويـني لهـا امـا غريـزة المعرفـة عنـد المفكـر فهـي تـدل عـلى ماهيتهـا مـن خـلال التحليـل والربـط المنطـقي . وعليه فـإن فهـم ومعرفـة أيـة ظاهـرة هـو عـن طريـق الإلمـام بماهيتهـا.

فلكل ظاهرة عمق تكويني وبعد حركي ، وان رصيد المعرفة البشرية ينمو وينضج من خلال العمق الفكري للإنسان ومعرفة قوانين حركة الظواهر ، تلك القوانين التي تمكن الظاهرة البشرية من النمو باستمرار .

العليـة

ذكرنـا سـابقاً فيمـا يخـص وجـود ظاهـرة وعلاقتهـا بعنـاصر تكوينها حيث أن لكل ظاهـرة عنـاصر تكويـن اجتمعت بمقادير معينـة كونـت الظاهـرة ، اذاً فالعلاقـة ضروريـة بـين وجـود الظاهـرة وعناصرهـا وان الترابـط المتسلسـل في نشـوء وحركـة الظواهـر انتـج تلـك الـضرورة ، فالعليـة هـي نتـاج مـن طبيعـة حركـة الظواهـر .

أن العليـة لا تثبـت العلاقـة بـين العلـة ومعلولهـا فقـط , وانما تثبت ايضـاً الواقـع الموضـوعي للعلـة فـأن تمـدد الاطـارات الحديديـة لا يعـني وجـود العلاقـة بـين التمـدد والحـرارة فقـط وانمـا يثبـت الواقـع الموضـوعي للحـرارة كـون الحـرارة احدثـت ظاهـرة التمـدد فالحـرارة هـي احـد عنـاصر تكويـن ظاهـرة التمـدد حيث ان في حالـة تمـدد المعـادن دليـل علـى وجـود حـرارة فـلا يمكـن ان نغفـل الواقـع الموضـوعي لعنـاصر التكويـن الـتي هـي أسـاس وجـود الظاهـرة .

عودة إلى ديكارت

أ- اسـتدل ديـكارت علـى وجـوده بالفكـر فالفكـر حقيقـة لا يمكـن إنكارهـا فهـو ليـس دليـل تقليـدي لإثبـات شـيء مـا أو نظريـة يحـاول إثباتهـا شخـص وينفيهـا آخـرون , إنمـا هـو حقيقـة موضوعيـة يمارسـها كل انسـان . ان أي محاولـة لنـفي الفكـر هـي في الحقيقـة تناقـض كبـير فالمحاولـة هـي نتـاج فكـري بالتـالي نـفي المحاولـة في المحاولـة نفسـها .

ينتج الفكر من وجود ثلاث عناصر: العقل ,الحواس , المحسوسات (الظواهر) فالفكر هو حركة العقل , فكلما كان الفكر اكثر تنظيماً وابعد عمقاً كان اعمق اثراً و أوسع انتشاراً وينظم الفكر عن طريق القواعد العقلية التي هي ساكنة بطبيعتها مالم تحركها العناصر الاخرى ، فينتج الفكر من تفاعل تلك القواعد مع بقية العناصر وينعدم في حال انعدام احد تلك العناصر . ان هذه العناصر مجتمعة تشكل ماهية الفكر لتنتج بعداً او ظاهرة هي التفكير ، فظاهرة التفكير ليست نتاج الصدفة او حدثاً عرضياً انما هو وليد ظواهر اخرى كان لها الدور في ظهوره ، وأن الواقع الموضوعي للفكر هو دليل على الواقع الموضوعي لعناصر تكوينه ، بالتالي يعود التفكير بنتيجة ايجابية على العقل والحواس والمحسوسات. وعليه فأن الفكر هو البعد التكويني لتلك العناصر .

ب- منذ اللحظة الاولى للانفجار الكبير والكون مستمر في حركة خاضعة لأبعاد معينة وموضوعية تحكم حركة الظواهر في تركيبها ونشأتها وتطورها فتنشأ الظاهرة وفق حركة ذكية من ظواهر اخرى وفق تراكيب خاضعة لطبيعة تلك الظواهر وانسجامها مع قوانين الطبيعة . فالوجود عبارة عن أبعاد بمقادير معينة وظواهر غير محدودة لكونه مستمراً في نشأة ظواهر جديدة في كل لحظة من عمر الكون . ان وجود الظاهرة هو نتاج وجود ظواهر سابقة كونتها بمقادير معينة. وان حركة وسلوك الظاهرة هي انعكاس لطبيعتها التي

بدورها خاضعة لطبيعة عناصر تركيبها, فأن نشأة الظاهرة ووجودها يتعلق بوجود عناصر تركيبها فظاهرة الدولة مثلاً تكونت من مجموعة عناصر هي الشعب , الاقليم , والسلطة السياسية والشعب يتمثل بالطبيعة البشرية وحاجتها لهذا التنظيم , فأن اجتماع تلك العناصر بمقادير معينة ينتج بعداً جديداً نطلق علية اسم الدولة فأن وجود الدولة دليل على وجود عناصرها للعلاقة بين وجود الظاهرة ووجود عناصرها وفي الحقيقة ان اثبات الواقع الموضوعي للظاهرة لايثبت الواقع الموضوعي لعناصرها فقط وإنما أسبقية تلك العناصر في الوجود زمنياً اما قانونياً فجميعها موجودة في الوقت نفسه أي حتى قبل نشوء الظاهرة لأسبقية القانون على الحركة فإن علاقة الدولة بالشعب والاقليم والسلطة السياسية هي علاقة وجودية وفي حال نفي وجود احد تلك العناصر هو نفي وجود الدولة .

المبحث الثاني
الأبعاد والحدث

الظاهـرة ان كل موجـود هـو ظاهـرة ولـكل ظاهـرة حركـة ولـكل حركـة ابعـاد مقـدرة والـكل يعمـل وفـق نظـام موحـد هـو تركيبـة الحـدث الاول (الوجـود) .

نظام التركيبة

تتعلق امكانية وجودنا الطبيعي بالنظام الذي يحكم الحركة.

ونعـني بالتركيبـة جمـع العنـاصر ذات العلاقـة لتكويـن ظاهـرة بقوانـين ومقاديـر معينـة ومنسجمـة مـع الظواهـر المحيطـة بهـا. حيث ان حـدوث تبخـر المـاء هـو نتيجـة اجتمـاع عنـاصر معينـة كالضغـط والحـرارة والمـاء وذلـك بالاعتمـاد عـلى سـلوك او خـواص تلـك العنـاصر المجتمعـة لتكويـن الظاهـرة (ظاهـرة التبخـر) لكـن اسـتمرار الظاهـرة يعتمـد عـلى طبيعتهـا وعـلى طبيعـة البيئـة المحيطـة بهـا الـتي تمكـن الظاهرة من الاسـتمرار او الهـلاك.

ان عـدم انسجـام الظاهـرة مـع طبيعـة البيئـة المحيطـة بهـا يعـني هـلاك الظاهـرة فـأن حركـة الظاهـرة يجـب ان تكـون منسجمـة مـع حركـة الظواهـر المحيطـة بهـا أي مـع ابعادهـا لان حركـة الظاهـرة هـي انعـكاس لطبيعتهـا (ابعادهـا) فـأن ولـدت ظاهـرة في غـير بيئتهـا فهـي في الواقـع ظاهـرة غـير منسجمـة و لا تملـك القـدرة عـلى الاسـتمرار .

وعليه فـأن ابعـاد الظاهـرة تتعلـق بالـضرورة بأبعـاد عنـاصر التركيـب , أي ان العلاقـة بـين الظاهـرة وابعـاد عناصرهـا والبيئـة المحيطـة بهـا علاقـة مترابطـة في نشـأتها ووجودهـا و اسـتمرارها .

جوهر الظاهرة

ان لـكل ظاهـرة ابعـاد ذاتيـة منفـردة نطلـق عليهـا جوهـر الظاهـرة وتتفـرد كل ظاهـرة بجوهرهـا الخـاص وهـذه الابعـاد مكتسـبة مـن تركيبهـا أي مـن ابعـاد عنـاصر تركيـب الظاهـرة وان هـذا التفـرد ليـس تفـرداً زمنيـاً مؤقتـاً ومتغيـراً ، انمـا هـو تفـرد ثابـت في جوهرهـا غـير قابـل للتغيـير في سـلوكها بسـبب ثبـات أبعادهـا فتمتـاز كل ظاهـرة بثبـات أبعادهـا الـتي تميزهـا عـن أي ظاهـرة أخـرى وأن حركـة الظاهـرة خاضعـة لأبعادهـا و إنعكاسـا لهـا وعليه تكـون حركـة الظاهـرة ثابتـة ومتفـردة عـن غيرهـا وان ثبـات جوهـر الظاهـرة هـو عنـصر مـن عنـاصر المعرفـة البشريـة .

فـإذا قمنـا بـرمي قطعـة نقـود معدنيـة بصـورة عشـوائية فـأن احتمـال ظهـور صـورة الرجـل هـي (٢/١) ولنفـرض ان الصـورة الـتي ظهـرت لنـا هـي صـورة الرجـل فـأن تكـرار رمـي قطعـة النقـود بنفـس الطريقـة والظـروف ينـفي الاحتمـال وتصبـح النتيجـة يقينيـة , وعليه فـأن سـلوك الظاهـرة يبـقى ثابتـاً وخاضعـاً لعنـاصر التركيـب .

فالظاهـرة والحركـة في علاقـة متماسـكة لا ينفصـلان ، فـإن وجـود ظاهـرة يعـني وجـود حركـة والعكـس صحيـح ، و أن هـذا

التماسك تفرضه ابعاد الظاهرة ، كذلك تفرض تلك الابعاد طبيعة تلك الحركة ، فأن حركة الظاهرة هي نتاج طبيعة ابعادها فالحركة هي انعكاس او صورة لتلك الابعاد ، و ان تحليل حركة الظاهرة هي معرفة ابعادها .

الابعاد

ان لكل ظاهرة أربعة أبعاد هي (**الطاقة , القانون , الإرادة والغاية**) ولدى كل ظاهرة مقدار معين من تلك الابعاد . وان الاختلاف بين ظاهرة وأخرى هو في الحقيقة بسبب الاختلاف في مقادير أبعاد الظواهر, كذلك تحدد هذه المقادير طبيعة حركة الظواهر ، بذلك تكون حركة الظواهر خاضعة لمقادير ابعادها , وأن هذه المقادير(مقادير أبعاد الظاهرة) تكونت من مقادير أبعاد عناصر تركيب الظاهرة.

فلكل ظاهرة مقدار محدد من الطاقة ، و إرادة لتحقيق غايتها من وجودها وفق قانون خاص بها يحدد الطريق للوصول الى الغاية وفق طبيعة التركيب أي وفق مقدار الطاقة وطبيعة الغاية وحجم إرادتها .

فالقانون يدل على وجود الغاية ، وتحقيق الغاية يدل على وجود الإرادة ، والكل يدل على وجود الطاقة فلكل حركة او فعل طاقة تمكن الظاهرة من تحقيق غايتها وفق القانون وحجم الإرادة .

الغايــة

ان لـكل ظاهـرة فطـرة فطـرت عليهـا أي ان لـكل ظاهـرة ابعـاداً بمقاديـر معينـة ، و ان هـذه الأبعـاد ثابتـة بمقاديرهـا لا تتغير، و كذلـك تختلـف هـذه المقاديـر مـن ظاهـرة الى أخـرى و إن اختـلاف مقاديـر الأبعـاد هـو سـبب اختـلاف ظاهـرة عـن أخرى.

ان لـكل ظاهـرة حركـة معينـة تكـون وفـق مقاديـر ابعادهـا ، حيـث ان حركـة كل ظاهـرة تكـون باتجـاه غايـة معينـة وان انعـدام الغايـة يعـني انعـدام الابعـاد الاخـرى كذلـك انعـدام الحركـة فـلا يمكـن ان تخلـو ظاهـرة مـن غايـة معينـة لهـا مـن الـذرة الى الـنجم ومـن خليـة الى إنسـان كلهـا لا تخلـو حركتهـا مـن غايـة ، فـأن كل لحظـة تمـر بهـا الظاهـرة هـي باتجـاه غايتهـا .

وعليه فـأن لـكل ظاهـرة غايـة معينـة فطـرت عليهـا وتكـون طبيعـة الغايـة مكتسـبة مـن مقاديـر ابعـاد عنـاصر تركيـب الظاهـرة .
لكن ماهـي الغاية ؟ او ماهو مفهوم الغاية ؟
الغايـة هـي (مـا يجـب ان تكـون عليه الظاهـرة في البيئة المحيطة بهـا وفـق مقاديـر ابعادهـا) فعندمـا نذكـر الحديـد مثـلاً يتبـادر الى الذهـن الصلابـة لكـن هـل ان الحديـد صلـب حقـاً؟ في الحقيقـة ان الحديـد صلـب في درجـة حـرارة معينـة وسـائلٍ في درجـة حـرارة اخـرى فالحديـد في الواقـع يكـون سـائلاً في درجـة حـرارة ١٥٣٨ ودون ذلـك بقليـل يصبـح مرنـاً، ودونـه اكـثر يكـون صلبـاً ، فصلابـة الحديـد الـتي نتعامـل معهـا هـي

في الحقيقة خاضعة لطبيعة الحديد ومناخ الكوكب أي للبيئة المحيطة به فغاية الحديد هي ان يكون سائلاً في درجة حرارة ١٥٣٨ وصلباً في درجة حرارة ٣٨ وفق مقادير ابعاده والبيئة المحيطة به ، فالبيئة التي لا تستطيع فيها الظاهرة من تحقيق غايتها هي بيئة غير منسجمة مع مقادير ابعاد الظاهرة . وإن عدم انسجام الظاهرة مع طبيعة البيئة المحيطة بها يؤدي إلى هلاكها، ونقصد بهلاك الظاهرة هو تفكك تركيبها ، فالبيئة الرطبة تؤدي الى تأكسد الحديد (تفكك تركيبه) بالتالي فأن مقادير ابعاد الحديد لا تنسجم مع طبيعة هذه البيئة فالظاهرة التي تتمكن من البقاء او الاستمرار هي في الحقيقة منسجمة مع طبيعة البيئة المحيطة بها . فالانسجام بين مقادير ابعاد ظاهرة وطبيعة البيئة المحيطة بها شرط اساسي للبقاء .

الإرادة

الارادة هي احد ابعاد الظاهرة الأربعة وهي الباعث الاساس على الحركة التي تحددها طبيعة الغاية ولأن الظاهرة والحركة لا ينفصل احدهما عن الاخر كذلك لا تنفصل الارادة عن الحركة فالإرادة بالإضافة إلى الغاية هما المحرك الاساس للظاهرة و ان الطاقة تساوي صفراً في حال انعدامهما او نفيهما .

فالإرادة هي (عملية تسخير الطاقة لتحقيق الغاية) و هي خط التواصل بين الطاقة والغاية فمهما بلغ حجم او كمية

الطاقة في الظاهرة تبقى الظاهرة عاجزة عن تحقيق غايتها في حال انعدام الارادة وعليه فأن ابعاد الظاهرة الأربعة كالجسد الواحد يكمل كل جزء فيه الاخر ويعمل كمنظومة واحدة ليعطي الظاهرة شكلها وطبيعة حركتها .

و لأن الظاهرة تحقق غايتها في البيئة التي تنسجم مع مقادير ابعادها ، و لأن ابعاد الظاهرة تعمل كمنظومة واحدة منسجمة ، فالإرادة كذلك تعمل في البيئة التي تستطيع الظاهرة فيها من تحقيق غايتها .

وان تحقيق الظاهرة لغايتها هو دليل على الارادة فالظاهرة تكتسب ارادتها من ارادة العناصر التي أنشأتها وقوة الارادة تحددها طبيعة الغاية وحجم الطاقة .

ولكن هل إرادة الظاهرة هي إرادة عاقلة ؟

في الحقيقة ان الارادة هي انعكاس لإرادة عاقلة , إن عمل الإرادة دائما يكون باتجاه هدف أو غاية معينة حيث لا يتخللها انعدام الغاية بأي شكل من الأشكال , فهي تعمل لتحقيق غاية معينة لها مرسومة بقوانين دقيقة جداً لاعشوائية والاهم في ذلك ان هذه القوانين ليست قوانين ثابتة فحسب بل واعية ايضا فعند مشاهدتها سنلاحظ إن الطبيعة تعي نفسها كالإنسان تماما , وسنتكلم عن هذا في دراسة لاحقة.

القانون

ان كل ظاهرة تحدث بقانون ، ولكل قانون غاية تختلف من ظاهرة الى اخرى ، فلكل ظاهرة حركة ، ولكل حركة قانون معين يربط طاقة الظاهرة بغايتها ، فالقانون هو (القاعدة او الاساس الذي تسير عليه الظاهرة لتحقيق غايتها) ان القانون سابق الحدث ,أي ان لكل ظاهرة طريق معين سابق على وجودها وهو اساس حركة الظاهرة المرتبطة بغايتها والقانون اشبه بسكة حديد ثابت وله غاية معينة تسير عليه الظاهرة لبلوغ الغاية .

وتحكم الطبيعة مجموعة هائلة من القوانين لا يمكن اختراقها او تغييرها , ويكون عمل قوانين حركة الظواهر اشبه بحركة العجلة المسننة حيث يكون الانسجام عنصراً اساساً في استمرار الحركة .

أن قانون الظاهرة هو أساس بقائها أو هلاكها لأن انسجام قانون الظاهرة مع قوانين الظواهر المحيطة بها هو اساس استمرار الظاهرة وتمكنها من تحقيق غايتها وفي حال عدم الانسجام مع قوانين الظواهر المحيطة بها يؤدي الى هلاك الظاهرة الذي هو عدم انسجام حركة الظواهر ويحدث ما يشبه تكسر العجلة المسننة و بالتالي انعدام وتفكك التركيب.

وعليه فأن انسجام القانون مع طبيعة البيئة المحيطة به يعني انسجام غاية الظاهرة الذي هو انسجام الظاهرة مع طبيعة او حركة البيئة المحيطة بها و بالتالي استمرار حركة

الظاهـرة

الطاقــة

الطاقـة هـي القـوة أو البعـد الـتي تعـطي للظاهـرة الامكانيـة او القـدرة عـلى الحركـة . ان الطاقـة ليسـت محـركاً للظاهـرة وإنما تعـطي القـدرة عـلى الحركـة حيـث تعتمـد الظاهـرة في حركتهـا لتحقيـق الغايـة عـلى مقـدار طاقتهـا والإرادة الـتي تسـخر تلـك الطاقـة لتحقيـق الغايـة وفـق قانـون الظاهـرة وتختلـف مقاديـر الطاقـة مـن ظاهـرة الى اخـرى فهنـاك مقـدار معـين مـن الطاقـة في كل ظاهـرة (و هنـاك ظواهـر ذات طاقـة كبـيرة وظواهـر ذات طاقـة اقـل أو صغـيرة فـفي حالـة عـدم الانسجـام بـين هاتـين الظاهرتـين فـأن الهـلاك يكـون مـن نصيـب الاقـل طاقـة). ان العنـاصر او الظواهـر الـتي ركبـت وأنشـأت الظاهـرة تكـون اكبر طاقـة مـن الظاهـرة الجديـدة لان الـشيء لا ينتـج أكـبر منـه حيـث يكـون مـن الممكـن ان تكـون طاقـة الظاهـرة اكبر مـن طاقـة احـد عنـاصر التركيـب ولكـن لا تكـون اكبر مـن المجمـوع بالتـالي فـأن عـدم انسجـام الظاهـرة مـع البيئـة الـتي انشـأتها يـؤدي الى هـلاك الظاهـرة ولكـن الانسجـام يحـول دون هـلاك الظاهـرة مهـما قـل مقـدار طاقتهـا .

الزمـن

ان البيئـة الـتي تعيـش فيهـا الظاهـرة تتكـون مـن مجموعـة مـن الظواهـر ولـكل ظاهـرة مقاديـر وطبيعـة معينـة وتتحـدد درجـة انسجـام الظاهـرة مـع البيئـة المحيطـة بهـا بعـدد الظواهـر المنسجمـة معهـا وعـلى حجـم طاقتهـا فكلـما زاد عـدد الظواهـر المنسجمـة معهـا زاد مـن عمـر الظاهـرة ، كذلـك حجـم الطاقـة بـين الظواهـر المنسجمـة وغـير المنسجمـة فـإذا كانـت طاقـة الظواهـر غـير المنسجمـة اكبر مـن طاقـة الظاهـرة فـإن ذلـك يعجـل في نهايـة الظاهـرة وتفككهـا والعكس صحيـح فالزمـن هـو عمـر الظاهـرة وحركتهـا ويعتمـد زمـن الظاهـرة عـلى درجـة انسجـام الظاهـرة مـع طبيعـة البيئـة المحيطـة بهـا فكلـما ارتفعـت درجـة انسجـام الظاهـرة مـع بيئتهـا ارتفـع سـقفها الزمـني وكلـما انخفضـت درجـة الانسجـام انخفـض سـقفها الزمـني ، وعليه فـان زمـن الظاهـرة يتأثـر ببيئتهـا ، وأن انخفـاض درجـة الانسجـام يعـني أن الظاهـرة في طريقهـا إلى التفـكك والنهايـة .

مجال الظاهرة بين الطاقة والانسجام

ان كل ظاهـرة تميـل الى التوسـع والانتشـار مـا لم تحـد مـن توسـعها ظاهـرة اخـرى وان كل ظاهـرة تتحـرك ضمـن مجـال معـين ، وتختلـف الظواهـر في مجالهـا مـن ظاهـرة الى اخـرى ، ويتحـدد مجـال الظاهـرة بالاعتمـاد علـى عنصريـن همـا **الطاقة والانسجـام** .

ا- الطاقــة :

ان عـدم الانسجـام بـين الظواهـر يـؤدي الى حـدوث صراع بينهـا حيـث تكـون نتيجـة الـصراع لحسـاب الظاهـرة الأكـبر طاقـة و بالتـالي تسـتمر الظاهـرة بالتمـدد والتوسـع في مجالهـا علـى حسـاب الظواهـر الضعيفـة او الأقـل طاقـة ، وباسـتمرار هـذا التمـدد في البيئـة غـير المنسجمـة معهـا فأنهـا تصـل الى مجـال تكـون فيـه مجمـوع طاقـة الظواهـر المحيطـة بهـا اكبر منهـا طاقـة ويحـدث مـا اسميـه بارتفـاع درجـة عـدم الانسجـام أي ارتفـاع عـدد الظواهـر المحيطـة بهـا وغـير المنسجمـة معهـا و بالتـالي يـؤدي الى اضمحـلال الظاهـرة وتفككهـا او انهيارهـا أن افضـل مثـال يمكـن اسـتخدامه هـو ظاهـرة تمـدد البراكـين بعـد انفجارهـا الـتي تسـتمر بالتمـدد علـى حسـاب الطاقـة رغم عـدم الانسجـام البيـئي لهـا , ولكـن هـذا التمـدد الـبركاني سرعـان مـا يصـل مجالـه إلى أقصـاه حيـث يصبـح المحيـط اكبر منـه طاقـة.

ب- الانسجـام

يتحـدد مجـال الظاهـرة في الانسجـام عـلى درجـة انسجامهـا مـع البيئـة المحيطـة بهـا حيـث ان ارتفـاع درجـة الانسجـام يـؤدي بالظاهـرة الى التمـدد والتوسـع الى ابعـد ظاهـرة يمكـن الانسجـام معهـا , ذلـك لتقـارب طبيعـة الظواهـر في البيئـة الواحـدة الـذي يـؤدي بالظاهـرة الى التوسـع في مجالهـا الى تلك النقطـة الـتي تنسجـم معهـا وتسـتمر الظاهـرة في حركتهـا ضمـن هـذا المجـال حـتى وان كانـت مجمـوع طاقـة الظواهـر المحيطـة بهـا اكبر مـن طاقتهـا لان الانسجـام يقـضي عـلى صراع الطاقة,والفـرق بـين الانسجـام والطاقـة في مجـال الظاهـرة هـو ان في الانسجـام تتمكن الظاهرة من الاسـتمرارية في الحركـة عندمـا تصـل الى ابعـد نقطـة تنسجـم معهـا امـا في الطاقـة فـأن ابعـد نقطـة تصـل اليهـا الظاهـرة تمثـل نهايتهـا فهـي النقطـة الـتي تكـون فيهـا مجموع طاقـة الظواهـر المحيطـة بهـا اكبر منهـا طاقـة بالتـالي تمثـل هـذه النقطـة نقطـة الهـلاك .

التطـور

قبـل ان نعـرف مـا هـو التطـور يجـب أن نعـلم بـأن هنـاك قاعـدة أساسـية وهـي إن التطـور حركـة ايجابيـة للظاهـرة في بيئتهـا. ان التطـور ببسـاطة هـو التركيـب او التعديـل الـذي يضـاف الى الظاهـرة وينقلهـا مـن حالـة إلى أخـرى , مـن ظاهـرة قليلـة الانسجـام إلى ظاهـرة أكـثر انسجامـاً مـع البيئـة المحيطـة بهـا ويحـدث التطـور نتيجـة حركـة أو تغيـرات خارجيـة تسـتجيب لهـا مقاديـر ابعـاد الظاهـرة و يـؤدي ذلـك الى تفاعـل بـين الحركتـين وفـق مقاديـر ابعـاد الظواهـر المتفاعلـة والـتي تكـون

منسجمة بالأساس في ابعادها وفق القوانين وبالتالي يحدث التطور الذي هو نتيجة استجابة الظاهرة للمتغيرات التي تحدث في بيئتها, فالتطور هو إحداث ظاهرة جديدة مختلفة عن الظاهرة القديمة, مشتقة منها ومشابهة لها , فهي مختلفة في الاضافة ومشابهة بالاشتقاق وتكمن ايجابية حركة التطور في زيادة عدد الظواهر التي تنسجم معها الظاهرة في بيئتها الذي هو سبب لارتفاع السقف الزمني للظاهرة الجديدة عكس الظاهرة القديمة التي ضلت اقل انسجاماً من قريبتها فأن عدم استجابة الظاهرة لمتغيرات البيئة يؤدي الى اضمحلال الظاهرة و اندثارها وعليه فأن الانسجام والاستجابة للمتغيرات هو اساس حركة التطور.

الفصل الثاني
الظاهرة البشرية

المبحث الاول
بيئة الظاهرة

التحدي والاستجابة

تمكنت الظاهرة البشرية من التواجد في بيئات معينة على سطح الأرض ولم تتمكن من العيش في بيئات اخرى حيث استطاع الانسان العيش في بيئات متقاربة نسبياً, بيئات توفر له عناصر البقاء والاستمرارية حيث استطاع في هذه البيئة من النمو وتشييد الحضارة والارتقاء بمواجهة التحديات النسبية التي واجهته في هذه البيئة. ان تواجد الإنسان في هذه البيئة وعدم تواجده في بيئات اخرى ليس تواجد صدفة انما هو حركة طبيعية ومرسومة تعتمد على ابعاد الظواهر الطبيعية، فالبيئات التي لم يتواجد الانسان فيها تعتبر بيئات طاردة له أي بيئات لا تنسجم وطبيعة الظاهرة البشرية , وأن تواجده في تلك البيئات يعتبر خطراً وهلاكاً للظاهرة و بالتالي عدم قدرتها على البقاء والاستمرار والارتقاء ، اما البيئات التي تواجدت فيها الظاهرة البشرية فهي بيئات تنسجم الى حد كبير مع طبيعة الظاهرة و بالتالي تمكنت فيها من الاستمرارية والارتقاء .

الحضارة المصرية والحضارة السومرية :

كانت الظروف البيئية للحضارة الفرعونية والحضارة السومرية متقاربة الى حد كبير، فأن ظهور الحضارة الفرعونية في مصر و الحضارة السومرية في العراق هو نتيجة قدرة الظاهرة البشرية على التأقلم والانسجام مع تلك البيئة وقدرتها على تحدي الظروف البيئة في تلك المنطقة, فقد كانت ارض مصر و العراق ملائمة لتواجد الظاهرة

البشرية وتطورها عكس المناطق التي كانت تغزوها الثلوج وانخفاض في درجات الحرارة كذلك المناطق الجبلية الوعرة كلها بيئات تحد من نمو الحضارة وتطورها حيث كان الثلج يغطي أوروبا الشمالية حتى جبال الهارز[١] وكانت الثلوج تتوج جبال الالب والبرانس[٢] , و عمل الضغط العالي للقطب الشمالي على امالة الزوابع المطرية اتجاه الجنوب وكانت الأعاصير التي تخترق أوروبا الوسطى تمر في ذلك الوقت فوق حوض البحر الابيض المتوسط وشمال الصحراء الكبرى وتستمر في طريقها دون أن تعترضها جبال لبنان, مارة عبر العراق وبلاد العرب الى فارس والهند. فكانت الصحراء الجدباء تنعم في ذلك العهد بهطول الامطار بانتظام بينما كانت الامطار في المنطقة الأبعد من ذلك شرقاً أعظم غزارة عما هي عليه الان ، بل وموزعة على مدار السنة كلها ولا يقتصر سقوطها على فترة الشتاء كما هو الحال في الوقت الحاضر، وتبعاً لذلك كان يجب ان نتوقع ازدهار الحدائق والاحراش في شمال افريقيا وبلاد العرب وفارس ووادي السند. على غرار ازدهارها اليوم في شمال البحر الابيض المتوسط .وبينما كان الماموث[٣] والحرتيت المشعر والرنة ترعى هنا وهناك في فرنسا وجنوب انجلترا كما كانت تعيش في شمال افريقيا حيوانات توجد اليوم في منطقة الزمبيزي بروديسيا وكان من الطبيعي أن تكون المراعي البهيجة في شمال افريقيا وجنوب اسيا كثيفة

(١) هي اعلى سلسلة جبلية في شمال المانيا.
(٢) سلسلة جبلية تقع جنوب غرب أوربا بين فرنسا واسبانيا وتمثل الحدود الطبيعية بينهم.
(٣) نوع من الثديات الفيلية من فصيلة الفيلة, وهو فيل ضخم منقرض كان يعيش في أوربا الوسطى قبل مليون سنة.

السكان مثل سهول أوروبا الحالية . وبديهي أن نقدر أن الإنسان في ظل هذه البيئة المواتية المحفزة قد أحرز تقدماً أعظم مما أحرزه في الشمال المحصور بين الثلوج .
بيد أن المنطقة الإفراسية أخذت عقب نهاية عصر الجليد تكابد تغيراً في احوالها الطبيعية متجهة نحو الجفاف . وانبعثت حضارتان او اكثر في وقت واحد في منطقة كانت تشعلها سابقا مجتمعات بدائية تنُسب الى النوع الحجري البكر مثلها مثل بقية العالم المعمور آنذاك . ويشجعنا علماء الاثار المعاصرون على اعتبار جفاف إفراسيا تحدياً, كانت الاستجابة له في بدء هاتين الحضارتين .
نحن الآن على شفى الانقلاب الكبير. وسنواجه قريباً رجالاً يسيطرون على موارد غذائهم بفضل امتلاكهم حيوانات مستأنسة وزراعتهم الغلال .
ويبدو انه لامناص من ربط هذا الانقلاب بالأزمة التي احدثها ذوبان الجبال الثلجية الشمالية وما تلاه من انكماش الضغط القطبي العالي على أوربا. وتحويل عواصف الامطار الاطلسية من منطقة جنوب البحر الابيض المتوسط الى مجراها الحالي عبر اوربا الوسطى .
وسيكون هذا الحادث بكل تأكيد امتحاناً شديداً إلى أقصى حد لملكة الاختراع لدى سكان المنطقة التي كانت تنمو فيها المراعي والأعشاب فيما مضى .
وإزاء الجفاف التدريجي الذي ترتب على عودة حلقة الاعصار الاطلسي الى التحول نحو الشمال كلما تقلصت جبال اوربا الثلجية , اصبح على السكان الصيادين الذين تأثروا بهذا التغير ان يختاروا احد امور ثلاثة وهي :

_ التحـرك نحـو الشمـال او الجنـوب مـع صيـدهم متتبعـين المنطقـة المناخيـة الـتي ألفوهـا .
_ البقـاء في موضعهـم والحيـاة حيـاة تعيسـة مكتفـين بمـا يصيـدون مـن الحيوانـات الـتي قـد تقـاوم الجفـاف .
_ أو يسـتطيعون مـن غـير ان يهجـروا مواطنهـم الجديـدة تحرير انفسهـم مـن الاعتمـاد عـلى مـا توفـره بيئتهـم باسـتئناس الحيوانـات وفلاحـة الأرض .
فـفي حـال اولئـك الذيـن عزفـوا عـن تغيـير مواطنهـم وتبديـل طريقـة معيشـتهم كان الانقـراض نتيجـة فشـلهم في الاسـتجابة لتحـدي الجفـاف .
وإمـا الذيـن تفـادوا تغيـير موطنهـم بتعديـل طريقـة معيشـتهم وبتحويـل انفسهـم مـن صيادين الى رعـاة قـد أصبحـوا بـدو السهـب الإفـراسي (الصحـراء الكـبرى).
امـا اولئـك الذيـن آثـروا تغيـير مواطنهـم عـلى تعديـل طريقـة معيشـتهم أي تلك الجماعـات التي تجنبت الجدب بتتبـع منطقة الاعاصـير في تحولهـا شمـالاً معرضـين انفسهـم
دون قصـد الى تحـدٍّ جديـد , تحـدي البـرد الموسمـي الشمـالي الـذي لم تستسـلم لـه تلك الجماعـات , فقـد أثـارت فيهـم بيئتهـم الجديـدة اسـتجابة خلاقـة جديـدة .
بينمـا وقعـت الجماعـات الـتي تجنبـت الجـدب بالارتـداد جنوبـاً الى منطقـة الريـاح الموسميـة تحـت التأثـير المنّـوم للمنـاخ المـداري الـذي يسـير عـلى نمـط رتيـب لا يتغـير .
ونـرى اخـيراً ,ان ثمـة جماعـات اسـتجابت لتحـدي الجفـاف بتغيـير مواطنهـا وطريقـة معيشـتها معـاً ، وكان رد الفعـل هـذا

المضاعف النادر, هو العمل ذو القوة الدافعة الذي خلق الحضارتين المصرية والسومرية من بين ظهراني المجتمعات البدائية التي كانت تعيش في المراعي الافراسية السائرة في طريق الزوال .

ولقد تمثل التغييرٍ في طرٍيقة معيشة هذه الجماعات الخلاقة في تحولها تحولاً شاملاً من جامعي طعام وصيادين الى زراع . و إن التغيير في موطنهم قليل من حيث المسافة و لكنه واسع ان قيس بالاختلافات من حيث الطبيعة بين المراعي التي هجروها و بين البيئة الطبيعية الجديدة التي استقروا فيها وعندما استحالت المراعي المشرفة على وادي النيل الاولى الى الصحراء الليبية والمراعي المشرفة على وادي الفرات و دجلة الى صحراء الربع الخالي و دشت لوط (صحراء لوط) , خاض هؤلاء الرواد الابطال – بوحي الجرأة او اليأس - مستنقعات الادغال الموجودة في قرارة الوادي والتي لم يسبق لبشر التوغل فيها. و أحالها عملهم ذو القوة الدافعة الى ارض مصر والعراق .

و لا شك في أن مغادرتهم قد بدتٍ لجيرانهم الذين سلكوا الطرق الاخرى سالفة الذكر أملاً ضائعاً .

ذلك لأنه وقتما كانت المنطقة التي أخذت تتحول إلى السهب الافراسية جنة الله في الأرض كانت مستنقعات أدغال النيل وما بين النهرين تبدو برية , تمتنع على الإنسان وغير مطروقة ونجحت المغامرة كما اتضح فيما بعد نجاحاً يسمو على أعظم الآمال الفعلية التي راودت الرواد .فقد استطاعت اعمال الانسان ان تخضع لإرادته الطبيعة , فاختفت مستنقعات الادغال وحلت محلها مجموعة منسقة

مـن القنـوات والمدرجـات والحقـول . [١]
وهكذا استصلحت اراضي مصر والعراق , وشرع المجتمعان المصري والسومري في مغامرتهما الكبرى .
وعليه فـأن التحديـات الـتي واجههـا اباؤنـا السـابقون متنوعـة ومتغيرة كذلك استجابتهم لتلك التحديات كانت مختلفة وذلك بالاعتماد على طبيعة البيئة وافكار تلك الجماعات .
ان المنـاخ المعتدل والمياه الوفيرة والارض السهلية المنبسطة تعتبر بيئة نموذجية للظاهرة البشرية حيث يكون الانسجام في أفضل حالاته والتحديات في هذه البيئة تكون بسيطة اذا ما قورنت بتحديات البيئات الجبلية والباردة التي تحد من نمو وتطور الانسان او بالأحرى تكون طاردة او مهلكة له .
ان جوهر الاستجابة للتحديات هو قدرة الظاهرة على الانسجام مع متغيرات البيئة المحيطة بها .
ذلك هو اساس تطور الظاهرة ، فأن الانسجام والاستجابة للمتغيرات هو اساس حركة التطور وهذا ما شاهدناه في تطور الحضارتين المصرية والسومرية خلال فترات زمنية متعاقبة .

وعليه فأن تواجد المجتمعين المصري والسومري في تلك البيئة يعود بالأساس إلى الانسجام بين الظاهرة البشرية والبيئة المحيطة بها .
حيث تتمكن فيها الظاهرة البشرية من تحقيق غايتها الأساسية في الطبيعية آلا وهي البقاء ثم يلي ذلك بالدرجة الثانية النمو والتطور فالجماعات التي تقطن في بيئات صعبة والتي عزفت عن تغيير موطنها بسبب افكارها وتقاليدها

(١) ارنولد توينبي ـ مختصر دراسة التاريخ : ص117,

حدَّتها بيئتها من النمو والتطور . واحتفظت لنفسها ببقاء ونمو لا يذكر إذا ما تمت مقارنته بنمو وتطور المصريين والسومريين .

وعليه فأن تواجد الجماعات البشرية في بيئات مختلفة على سطح الأرض يعتمد بالدرجة الأساسية على توفر عناصر البقاء فالبيئات التي لا تتمكن فيها الظاهرة البشرية من تحقيق غايتها الاساسية تعتبر بيئات لا تنسجم ومقادير ابعاد الظاهرة .

المبحث الثاني
طبيعة الظاهرة المتفردة

الإرادة الحرة

تتميز الظاهرة البشرية عن جميع الظواهر بكونها تمتلك إرادة حرة غير الظواهر الاخرى التي تحكمها ارادة مقيدة . فالإرادة الحرة هي قدرة الظاهرة على تسخير طاقتها لتحقيق غايات لا تنسجم وطبيعة الظاهرة بالتالي تستطيع هذه الارادة الانحراف عن تحقيق الغاية الطبيعية للإنسان من وجوده في البيئة المحيطة به ، أن انحراف الإرادة عن تحقيق الغاية الطبيعية للإنسان هي اساس معاناة الانسان.
ان لكل ظاهرة غاية طبيعية تكون اساساً في وجودها وحركتها ، و ان القدرة على الانحراف عن هذه الغاية تتفرد بها الظاهرة البشرية عن الظواهر الاخرى ، و ان الانحراف عن الغاية الطبيعية ينتج عنه عدم الانسجام بين الغاية الطبيعية والغايات الأخرى(غير الطبيعية) كالظلم مثلاً .
إن هذا يؤدي إلى صراع داخلي بما هو كائن وبما يجب ان يكون نتيجة لعدم الانسجام, فالإرادة الحرة تمكن من تسخير الطاقة لتحقيق غايات لا تنسجم وطبيعة الظاهرة البشرية وهو يؤدي الى تناقض عميق ومبهم داخل الظاهرة وغير واضح للإنسان وتكون معاناته نتيجة لذلك , وتزداد معاناة الانسان كلما ارتفعت درجة عدم الانسجام أو الانحراف, وبما أن الظاهرة البشرية تعمل كمنظومة واحدة فأن انحراف احد افرادها لا يؤدي الى معاناته فحسب وانما الى معاناة من هم ضمن مجال حدوده حيث يمتد التأثير الى المجال الذي تشغله .
وعليه فأن الإرادة الحرة للإنسان إذا لم تستغل الطاقة في تحقيق غاية الظاهرة الطبيعية فأن ذلك يؤدي الى معاناة

الظاهـرة و بالتـالي هلاكهـا .
ان سـبب انحـراف الإرادة عـن الغايـات الطبيعيـة للإنسـان هـي الرؤيـة الخاطئـة في بنـاء الغايـة والـتي تعتمـد عـلى التجربـة السـابقة للإنسـان والبيئـة المحيطـة بـه , فـأن توجـه الارادة يكـون نحـو الغايـات الـتي تحقـق السـعادة او دفـع المعانـاة . ويختلـف مفهـوم السـعادة مـن جماعـة بشريـة الى اخـرى او مـن بيئـة الى اخـرى اعتمـاداً عـلى افـكار وتقاليـد تلك الجماعـات .

وهم الغايـة

ذكرنـا فيمـا سـبق ان الارادة الحـرة هـي قـدرة الظاهـرة عـلى تسـخير طاقتهـا لتحقيـق غايـات لا تنسـجم وطبيعـة الظاهـرة و بتعبـير اخـر هـي القـدرة عـلى الانحـراف عـن الغايـات الطبيعيـة للظاهـرة ، امـا وهـم الغايـة : فهـو قـدرة الظاهـرة عـلى إخفـاء هـذا الانحـراف الـذي يعـد مرفوضـاً مـن قبـل طبيعـة البيئـة والمجـال الـذي تشـغله الظاهـرة لكونـه يعـود بآثـار سـلبية عليهـا , وتبيـان سـلوك آخـر قـد ينسـجم مـع البيئـة ؛ وسـبب ذلـك هـو انهـا تحقـق السـعادة مـن وجهـة نظـر المؤثـر سـواء تكـون السـعادة فرديـة أو جماعيـة . إلا أن وهـم الغايـة لم يقـدر لـه ان يسـتمر لان الانحـراف حـتى وان كان مسـتتراً بـرداء الانسـجام لكنـه يعـود بسـلوك سـلبي يـؤدي الى صراع وتشـقق الظاهـرة والمجـال الـذي تشـغله دون ان تشـعر . وعـلى الـرغم مـن ان وهـم الغايـة يسـاعد عـلى اطالـة عمر الظاهـرة المنحرفـة الا ان النهاية او هـلاك الظاهـرة مسـألة حتميـة مـا لم تـصحح مسـارها.
إن أكـثر النـاس يسـلكون هـذا السـلوك في حياتهـم اليوميـة ولكـن اكـثر مـن يبـدع فيـه هـي الحكومـات لكسـب الـرأي العـام او تضليلـه فـفي الانظمـة السياسـية يمـارس وهـم الغايـة عـلى

درجة عالية من الاحترافية في السلوك الداخلي والخارجي لتحقيق الغايات العليا للنظام ولكن مهما بلغ النظام من الاحترافية في ممارسة وهم الغاية إلا أن تفككه ونهايته حتمية لعدم انسجامه مع الظاهرة البشرية .

ضرورة النظام السياسي وضرورة الانسجام :

(إن الإنسان يفارق ساير الحيوانات بأنه لا يحسن معيشته لو انفرد وحده شخصاً واحداً يتولى تدبير امره من غير شريك يعاونه على ضروريات حاجاته , والإنسان لابد أن يكون مكفياً بآخر من نوعه ويكون ذلك الاخر أيضاً مكفياً به وبنظيره وهكذا باجتماع الناس يكون أمرهم مكفياً) .
أبن سينا

إن الاجتماع البشري ضروري لتطور الظاهرة البشرية كذلك النظام السياسي ضروري لتطور هذا الاجتماع ، فالنظام السياسي نتيجة طبيعة في طريق تطور المجتمع وتكامله.

كان الاجتماع في البداية بحاجة إلى تنظيم من نوع معين ينظم سلوكه ويحفظ حقوقه بالتالي ظهر النظام مع ظهور اول الاجتماعات البشرية متخذاً شكلاً بسيطاً وبدائياً لبساطة الاجتماع و بدائيته . فلكل اجتماع تنظيم معين تفرضه طبيعة الظروف البيئية والفكرية لهذا الاجتماع .

أن النظام السياسي سواء كان بدائياً أو متطوراً ، بسيطاً أو معقداً يعود وجوده إلى الظاهرة البشرية ، فالنظام السياسي هو وليد الظاهرة البشرية ، وان حاجة الظاهرة البشرية الى النظام السياسي تتمثل بهدفين .

- التنظيم

- حفظ حقوقها العادلة

إن سبب حاجة الظاهرة البشرية الى هذا التنظيم وحفظ الحقوق العادلة يعود بالأساس إلى الإرادة الحرة التي من خلالها يمكن للإنسان ألانحراف عن طبيعة الظاهرة وان ذلك يشكل خطراً على بقائها واستمرارها .

وأن غاية النظام السياسي هي حاجة الظاهرة البشرية . فيتمثل النظام السياسي بأفراد الظاهرة البشرية الذين تكون غايتهم تحقيق غاية النظام المتمثلة بحاجة الظاهرة والتي يجب ان تكون بالأساس منسجمة مع طبيعة الظاهرة البشرية اما في حال انحراف النظام السياسي عن تحقيق حاجه الظاهرة والذي يتمثل بانحراف افراد النظام عن غايتهم الطبيعية ينتج حالة عدم الانسجام مع الظاهرة البشرية و بالتالي يحدث صراع بين الظاهرة والنظام . ان عدم انسجام النظام السياسي مع طبيعة الظاهرة البشرية يؤدي الى اضمحلال النظام وانهياره لكون الظاهرة البشرية هي البيئة الاساس التي اوجدت النظام السياسي وان عدم الانسجام بينهما يؤدي الى صراع تكون نتيجة لصالح الموجد .

ويتحدد عمر كل نظام سياسي على درجة انسجامه مع طبيعة الظاهرة البشرية فكلما ارتفعت درجة انسجام النظام مع طبيعة الظاهرة كلما طال عمر النظام واستمراره وكلما انخفضت درجة الانسجام مع طبيعة الظاهرة كلما قصر من عمر النظام واقترب من انهياره وهناك عنصران يساعدان

على سرعة انهيار النظام :
- درجة الانحراف
- النضج الفكري
فكلما زاد انحراف النظام اقترب من انهياره كذلك كلما زادت طاقة الظاهرة المتمثلة بالنضج الفكري اصبح انهيار النظام حدثاً قريباً وحتمياً في حال انحرافه .

مجال الظاهرة البشرية

ان لكل ظاهرة مجالاً معيناً تشغله في الوجود وتعتمد في إشغالها لهذا المجال على بعدين اساسين تتمكن الظاهرة من خلال احدهما وضع مجالها بين الظواهر الاخرى وهذين البعدين هما الطاقة والانسجام حيث تتمكن الظاهرة من التحرك في مجالها أو التوسع فيه اعتماداً على هذين البعدين و انطلاقاً منهما في إشغالها لهذا المجال .
فأما التوسع على حساب الطاقة فأن نهاية الظاهرة في هذا البعد حتمية ما لم تتغير ظروفها مع المحيط لتنسجم معه فأنها ستصل الى مجال يكون فيه مجموع طاقة الظواهر المحيطة بها اكبر منها طاقة وهنا يحدث الصراع المحتوم لصالح المحيط , اما حركتها او توسعها على حساب الانسجام فسيكون نصيبها اوفر في البقاء والاستمرار حتى وان كانت الظاهرة اقل طاقة من المحيط .
اما في الظاهرة البشرية فأن موضوع مجال الظاهرة مختلف بعض الشيء , فخاصية الارادة الحرة التي تتمتع بها الظاهرة البشرية مكنها من اضافة بعد ثالث لمجالها

إضافة إلى الطاقة والانسجام ألا وهو « وهم الغاية « .
ان وهم الغاية هو البعد الثالث الذي تتمتع به الظاهرة البشرية فقط اضافة الى البعدين الاخرين متفردة به عن الظواهر الاخرى في الحركة والمجال الذي تشغله فأن كل ظاهرة تميل الى التوسع والانتشار ما لم تحد من توسعها ظاهرة اخرى ، فالانسجام هو الطريق الافضل للتوسع والاستمرار , ففي وهم الغاية تسلك الظاهرة البشرية سلوك الانسجام لإشباع غريزتها في التوسع ولكنه ليس انسجاماً طبيعياً انما هو انسجام مُقنّع و لا يحقق للظاهرة غايتها الطبيعية التي تصبو اليها , بل على العكس فأن نتائجه سلبية على الظاهرة وعلى المجال الذي تشغله كذلك فهو قريب الى الانهيار كبعده عن البقاء والاستمرار .
وان انهيار وهم الغاية هو بسبب اصطدامه بالنتائج السلبية التي يعكسها على طبيعة المجال الذي يشغله والتي لا تنسجم وسلوك الغاية المنحرفة المقنعة بالانسجام كذلك اصطدامه بالنضج الفكري للظاهرة البشرية التي تمثل حجر التعثر او السقوط لهذا الانحراف , وعليه فأن استمرار الظاهرة البشرية بطريق وهم الغاية هو في الواقع استمرارها في طريق التفكك والانهيار دون ان تشعر .

الفصل الثالث

المبحث الأول
البعد الثالث (وهم الغاية)

الثورة الفرنسية

كتب ميشليه[١] في كتابه الثورة الفرنسية يقول : ((في ١٣يوليو لم تكن باريس تحلم إلا بالدفاع عن نفسها , وفي ١٤يوليو انتقلت من الدفاع الى الهجوم , في مساء ١٣يوليو كانت سماؤها لا تزال ملبدة بالشكوك . اما في صباح ١٤يوليو فلم تعد لديها شكوك ,في المساء كان هناك اضطراب وهياج غير محدد الاتجاه , أما في الصباح فكان يشع فيه صفاء رهيب . مع الصباح استولت على باريس فكرة , ورأى الجميع نفس الضياء , في كل نفس ضياء وفي كل قلب صوت يقول : قم , وسوف تستولي على الباستيل .
كان ذلك شيئاً مستحيلا شيئاً جنونياً شيئاً غريباً أن يقال , ومع ذلك امن به كل الناس .وقد تحقق .
كان الرجال مسلحين بأدوات غريبة , وكان بعضهم يكاد يكون عارياً والبعض الآخر في ثياب من كل لون . وكانوا يحملون احد الرجال على الاعناق وقد توجوا رأسه بالغار. وكان هذا الرجل هو **جاكوب ايلي Jacob elie** (وهو ضابط صف قاد الحرس الفرنسي في الهجوم الأخير على الباستيل) كذلك حملوا معهم المفاتيح ,تلك المفاتيح الفظيعة البشعة الغليظة التي برأها استعمال القرون وبرئتها آلام

(١) كاتب ومؤرخ فرنسي ولد في عام 1798م, كان عضواً في اكاديمية العلوم الاخلاقية والسياسية الفرنسية.

البشر , هذه المفاتيح شاءت الصدفة او العناية الالهية ان تنتهي الى رجل كابد منها طويلا فهو سجين قديم . وقد ضمتها الجمعية الوطنية إلى أرشيفها فوضعت أدوات الطغاة جنباً إلى جنب مع القوانين التي حطمت الطغاة ونحن نحفظ هذه المفاتيح حتى اليوم في الدولاب الحديدي الذي يحفظ ارشيف فرنسا ..اه.. ليت هذا الدولاب الحديدي يحفظ مفاتيح كل باستيل في العالم !)) .(١)

وكتب أيضاً يقول :((يجب أن يقال إن الباستيل لم يسقط ولكنه أستسلم . أستسلم لأن ضميره المفعم بالذنوب أقلقه إلى حد الجنون وجعله يفقد روحه المعنوية)) .(٢)

ثورة الفلاحين

في ١٧٨٩كان العامل الغني يكسب ٢٠ سو يوميا (في الفرنك مائة سو) ,وقد يرتفع أجره اليومي إلى ٣٠ او٤٠ سو , وكان رغيف العيش زنة رطل واحد يساوي ٢سو .وذلك يعني إن أجر اليوم كان يساوي عشرة أرطال من الخبز , أي نحو ٤,٥كيلو جرام,في عام الثورة الفرنسية.

ففي عام ١٧٨٨ عرفت فرنسا أسوأ محصول من القمح مما رفع أسعار القمح حتى في الريف .

مما أدى إلى أن يعاني الشعب الفرنسي الجوع والبطالة في المدينة والريف على السواء , بينما كانت هناك طبقات انتفعت من ارتفاع سعر القمح كملاك الأطيان الذين كانوا

(١) لويس عوض ـ الثورة الفرنسية : ص11, .
(٢)المرجع نفسه : ص12.

يأخذون نصيبهم عينا من المحصول كجباة العشور والسادة الإقطاعيين والتجار وكان هؤلاء ينتمون إلى الارستقراطية أو البورجوازية أو رجال الدين .

وفي ٢٧ ابريل ١٧٨٩ قامت المظاهرات العنيفة في ضاحية سانت أنطوان احتجاجا على خطب انتخابية ألقاها رجل يدعى ريفيون revellon صاحب مصنع ورق ملون وآخر اسمه هنريو henriot صاحب مصنع هو الأخر , نددا فيها بأرتفاع أجور العمال وزعما إن العامل يستطيع أن يعيش مرتاحا على 15 سو يوميا .وفي 28 ابريل غضب الشعب واحرق المتظاهرون بيت كل منهما . وأسفرت المصادمات مع البوليس عن سقوط عدد من القتلى وكان هذا أول يوم من أيام الثورة سبق الهجوم على الباستيل , وكانت أسباب الهياج المباشرة اقتصادية لا سياسية . وكان فقراء المدينة مثل فقراء الريف يرون أن وقف الغلاء لا يكون إلا بتحديد الأسعار جبريا , بينما كان التجار يرفضون مبدأ التسعيرة الجبرية من أساسه .

وفي عام 1789 كان سكان فرنسا نحو 27 مليون نسمة منهم نحو 5ملايين يعيشون في المدن ونحو 22مليونا يعيشون في الريف ولم تكن ثورتهم مجرد ثورة اقتصادية وإنما كانت أساسا لإلغاء الامتيازات الإقطاعية التي كان يتمتع بها النبلاء ورجال الدين .

وقد نجحت ثورتهم عندما قررت الجمعية الوطنية إلغاء الامتيازات الإقطاعية في جلسة 4أغسطس1789 . وبوجه عام لم يكن الفلاحون الفرنسيون أسوأ حالا من نظرائهم في البلاد الأخرى مثل بولندا وروسيا ووسط أوروبا . كان

الفلاحون الفرنسيون يملكون في المتوسط 35٪ من مجموع أراضي فرنسا , فقد كانوا يكافحون عبر الأجيال ليشتروا حريتهم وحقوقهم بالمال من النبلاء . ولكن أغلب أراضي الفلاحين كانت لا تدر كثيراً لأنها تقع في الغابات وفي الجبال وفي المراعي ولضآلة مساحتها المفتتة .

ومع وجود هذا الفلاح الحر المالك كان هناك مليون من رقيق الأرض , وكان أولادهم لا يرثون متاع الأب إلا إذا دفعوا لمالكهم النبيل المال . وفي 1789 اتهم الأرستقراطيون بالتآمر لتخزين القمح والغلال لسحق العامة .

وفي أول يوليو كتب مارا jean-paul marat منشورا بعنوان « بيان للشعب أو كشف القناع عن الوزراء « يقول فيه (أي إخوتي المواطنين لاحظوا دائماً سلوك الوزراء لتحددوا سلوككم . إن هدفهم هو حل جمعيتنا الوطنية , وسبيلهم الأوحد هو الحرب الأهلية . أن الوزراء ينفخون في نار الفتنة , أنهم يحيطونكم بجهازهم الضخم من الجند والحرب) .

وعلى غرار ثورة باريس التي انتهت بسقوط الباستيل انتشرت الفتن في مدن الأقاليم طوال شهر يوليو في روان Rouen وفي أوك وفي بورج bourge وفي ديجون Dijon وفي مونتوبان montauban ثار الناس في كل بلد وطردوا أعضاء المجلس البلدي كما حدث في ستراسبورغ Strasbourg وقيدوا حركتهم بلجنة موسعة كما حدث في ديجون وغيرها .

استولت اللجان الثورية على البلديات في بوردو Bordeaux ومتز metz ونانسي nancy وانجيه anger ورين rennes وفي متز ونانسي وجدت اللجان الثورية مقاومة اجتماعية,

وفي مونتوبان ونيم nimes حد من سيطرة اللجان الثورية العراك بين البروتستانت والكاثوليك . وفي ليموج Limoges كانت المقاومة شخصية , وفي ليون lyon وتروا troyes جاءت المقاومة من الثورة المضادة . وفي بعض البلاد لم تحدث ثورة على المجالس البلدية لثقة الاهالي في اعضائها كما حدث في تولوز Toulouse أو لأن الجيش والمحاكم ساندت الثوار كما حدث في اكس aix وتشبهاً بما حدث في بلدية باريس تكونت في كل مكان مليشيات بورجوازية من الحرس الوطني لتخدم اللجان البلدية الثورية . وفي تولوز تكون حرس وطني دون ان تكون هناك ثورة بلديات , وفي البي albi أصبحت المليشيات القديمة هي نفسها الحرس الوطني.
وأيا كان شكل ثورة البلديات , فالنتيجة كانت واحدة في كل مكان , وهي انتهاء سلطة الملكية والحكومة المركزية , وتسلم البلديات كل السلطات بعد ان كان الحكم المطلق قد قضى عليها .
وتوقفت جباية الضرائب , وفي شهادة احد المعاصرين " لم يعد هناك ملك ولا برلمان ولا جيش ولا بوليس " .
وكان الباعث على الاضطرابات في كل مكان هو قلة القمح وغلاء ثمنه . فبدأت البلديات بفرض التسعيرة الجبرية , وبجمع التموين ولو بالمصادرة , ونهب الأهالي تجار الغلال وانتشرت الإشاعات عن غزو أجنبي , قيل أن الانجليز نزلوا في ميناء برست brest على المحيط الأطلسي من جهة بحر المانش , وان مملكة بيدمونت Piedmont في شمال غرب ايطاليا تتحرك لغزو فرنسا من جهة جرينوبل Grenoble وتحدث الناس عن مؤامرة ارستقراطية لقمع حركة التحرير

الشعبي , فانتشر الرعب الأعظم في نهاية يوليو 1789وراقب الأهالي الطرقات , وكان الحرس الوطني يحفظ النظام .
ومنذ إعلان إلغاء "**مجلس الطبقات**" وإنشاء "**الجمعية الوطنية**" في 17 يونيو وسقوط الباستيل في 14 يوليو 1789, سقطت السلطة تماما في يد الطبقات المتوسطة التي كانت تتألف منها الطبقة الثالثة , وسواء في باريس أو في الأقاليم سيطرت البورجوازية وحرسها الوطني على البلديات ومن خلالها على مقدرات فرنسا.
فماذا أصاب الفلاحين من كل ذلك ؟ لا شيء . فقد بقيت الامتيازات والحقوق والقوانين والأعراف الإقطاعية على حالها , فلم يلغ شيء منها .
ولم يكن الريف اقل بؤسا من المدينة فازداد فيه الشحاذون والجياع وانتشرت البطالة وعم الغلاء .وكثر اللصوص وقطاع الطرق , وغدت الطرق غير آمنة . وحتى منذ الربيع بدأ تململ الفلاحين من النبلاء يأخذ شكلاً ملموسا . فأخذ الفلاحون فرادى وجماعات يقتلون حمام النبلاء ويدمرون أبراجه لأن الحمام كان يلتهم محصولهم من القمح والغلال. كذلك أخذوا يقتلون أرانب النبلاء التي كانت تخرب محاصيلهم , وأخذوا يصطادون في غاباتهم وكانت هذه من الجرائم الكبرى .
وكانت مطالب الفلاحين مركزة على إلغاء الامتيازات الإقطاعية . وحين أدركوا أن ثورة باريس والمدن الفرنسية لم تعد عليهم بشيء تصاعد عصيانهم إلى تحد سافر للنبلاء .وسرت بينهم إشاعة تقول إن هناك مؤامرة ارستقراطية لتجويع الشعب بتنظيم عصابات من المجرمين لحرق أجران الفلاحين وتدمير محاصيلهم وزراعاتهم .

فساد الرعب الأعظم في الريف الفرنسي , وسلح الفلاحون أنفسهم بأدوات الزراعة وهاجموا قصور النبلاء وطالبوا النبلاء بتسليمهم الوثائق المزعومة لامتيازاتهم الإقطاعية لكي يحرقوها في ميدان القرية , فمن رفض منهم تسليم هذه المستندات أحرقوا قصره وشنقوه . وتكونت في ريف فرنسا لجان ومليشيات من الفلاحين .

ورغم تحذيرات ميرابو للفلاحين من تصديق الإشاعات عمت الثورة كل ريف فرنسا باستثناء مقاطعات بريتاني والالزاس واللورين . وعرفت ثورة الفلاحين ومهاجمة قصور النبلاء باسم « جاكيري » jacquerie كل هذا في أواخر يوليو ١٧٨٩. فلا غرابة إذن إن أصيبت طائفة من النبلاء بالرعب وعمدت طائفة أخرى إلى مكر الثعالب لتفريغ غضب الفلاحين . وكانت ليلة ٤ أغسطس ١٧٨٩ ليلة انتهت فيها جلسة الجمعية الوطنية في الساعة الثانية صباحاً بقرار شامل بإلغاء الامتيازات الإقطاعية وبإعلان حقوق الإنسان والمواطن , الذي جعلته الجمعية التأسيسية بمثابة ديباجة للدستور الذي كانت تضعه .

وقد ظهر أول تعارض في المصالح بين الفلاحين من جهة وبين البورجوازية المدنية والريفية من جهة أخرى في موقف الجمعية الوطنية والمجالس البلدية والحرس الوطني من ثورة الفلاحين وحركة « الجاكيري » لأن البورجوازية كانت تملك الأراضي مثل النبلاء , ولذا تكفل الحرس الوطني بقمع حركات الفلاحين بالسلاح .

أما الجمعية الوطنية فقد كانت ترغب في قمع حركة الفلاحين ومنع استيلائهم على أطيان النبلاء , لأن أعضاءها كانوا

أيضا من ملاك الأراضي . ولكنها خشيت من استعمال العنف وخشيت من تكليف الملكيين والجيش الملكي بقمع ثورة الفلاحين تحسبا من عودة السلطة القديمة إلى الحكم فقررت في جلسة ٤أغسطس ١٧٨٩إلغاء الامتيازات الإقطاعية رسميا بوصفها امتيازات مغتصبة ((إن الجمعية الوطنية تلغى النظام الإقطاعي إلغاءاً كلياً)) ولكنها عندما ناقشت (حقوق) النبلاء في جباية نصيبهم من ربح الأطيان بحجة ملكيتهم لحق الرقبة , أسندت عملية التحقق من هذه الحقوق إلى الدوق ايجويون daiguillon اكبر ملاك المملكة وكان معروفا بميوله أليبرالية , وبهذا تفرقت صفوف النبلاء واخذوا يتبارون في التنازل عن امتيازاتهم في جلسة 4 أغسطس .

قدم الدوق ايجويون اقتراحا ندد فيه بالإقطاع وبكى فيه على الفلاح . وأشار بأن الحل هو أن يتنازل النبلاء عن حقوقهم في ملكية أراضي فرنسا وجباية نصيبهم من ريعها على أن يشترى الفلاحون هذه الحقوق وما يترتب عليها بشروط ميسرة أو (متهاودة).

بدأت جلست 4 أغسطس 1789 بجملة اقتراحاته قدمها الفيكونت ذي نواى vicomte de noailles هي :

- إلغاء كافة الامتيازات الضريبية .

-إلغاء السخرة وكافة خدمات العبودية الشخصية (دون شراء أي دون دفع مقابل) .

- شراء الحقوق الفعلية على الأرض وليس الحقوق الوهمية أو الصورية . وأيده في ذلك الدوق ايجويون بحرارة شديدة , ووافقت على ذلك الجمعية الوطنية . كذلك ألغى

حق النبلاء في احتكار حق الصيد في الغابات وفي الأنهار كما تقررت إزالة أبراج حمام النبلاء التي كانت تلتهم غلال الفلاحين , وألغيت حقوق النبلاء في إقامة العدالة في مناطقهم. واقترح أحد النبلاء أن تتنازل الكنيسة عن العشور التي كانت تجبيها من الفلاحين فأحرج بذلك رجال الدين الذين ظهروا في مظهر المتقاعس عن نجدة الشعب الجائع,فأعلن أسقف نانسي أن الكنيسة تتنازل عن العشور . ووصل مائتان من النواب ليطالبوا الجمعية الوطنية بالموافقة على مشروع قانون بالنص على ضرورة احترام الملكية ((بتسكين اللام)) والوفاء بالالتزامات وكان هذا بمثابة تهديد غير مباشر لحركة إحراق قصور النبلاء " الجاكيري " ولكن الدوق ايجويون خطب في حرارة منددا بظلم الإقطاع, وتساءل إن كان الفلاحون محرقو القصور حقا مذنبين . لقد كان الدوق ايجيون كالمليونير الذكي الذي يضحي بنصف ثروته لينقذ النصف الثاني .

وفي الساعة الثامنة مساءاً وافقت الجمعية الوطنية على إلغاء الإقطاع بعد ألف سنة من استقراره في فرنسا . وبعد أن انتهت كلمات النبلاء اخذ نواب الشعب الكلمة . ووقف نائب من بريتاني اسمه كيرنجال kerengal لم يسبق له أن اعتلى المنصة قبل ذلك ولم يحدث له أن اعتلاها بعد ذلك , وقرأ نحو عشرين سطرا اتهم فيها الجمعية الوطنية بالتقصير لأنها لم تنتبه مسبقا لإحراق القصور ولم تحطم ما فيها من أسلحة مدمرة هي تلك الوثائق والعقود الفظيعة التي تساوي البشر بالبهائم وتربط الإنسان والحيوان معا في المحراث قال: (فلنكن عادلين آتونا بهذا الصكوك هذه

الشواهد على همجية إبائنا . من منا لا يضرم النار في هذه الوثائق الدنيئة من باب التكفير؟ . . لا تضيعوا لحظة واحدة فكل يوم من التأخير سوف يسبب حرائق جديدة ، ان سقوط الإمبراطوريات لا يحتاج لكل هذه الضجة للإعلان عنه . إلا تريدون أن تشرعوا القوانين لفرنسا المخربة؟).
واستقر النذير في وجدان السامعين .
وقال نائب أخر من بريتاني إن هناك حقوقا إقطاعية عجيبة وبربرية كحق النبيل في أن يبقر بطن اثنين من رقيقه كلما عاد من الصيد وأن يغوص بقدمه في جسدهما الدامي !
ووقف نائب من الأرياف اسمه دي فوكر de foucauill وهاجم النبلاء وطالبهم قبل الكلام في التنازل عن امتيازاتهم الإقطاعية أن يضحوا بمعاشاتهم ومرتباتهم التي يتقاضونها من الملك وهي من دم الشعب .
وبدلا من أن يرعوا ضياعهم يتركونها للخراب حتى يقيموا في بلاط الملك في فرنسا وبالفعل استجاب اثنان من النبلاء لدعوته وأعلنا إنهما على استعداد للتضحية بكل شيء وتحمس دي بوهارنيه de Beauharnais واقترح أن يساوي النبلاء وعامة الشعب في العقوبة وان تكون الوظائف مفتوحة للجميع وطالب نائب أن تكون العدالة بالمجان, وطالب دي روشفوكو de rochefouauld بمعاملة أكثر إنسانية للعبيد من الزنوج .
وهنا لاحظ رئيس الجمعية الوطنية ان كل الطبقات تكاملت معلنة عن تنازلاتها إلا رجال الدين . فتكلم أسقف نانسي باسم أساقفة فرنسا مطالبا ألا تؤول أموال شراء حقوق النبلاء إلى النبلاء أنفسهم بل أن تستثمر في مشروعات

ذات جدوى . وطالب أسقف شارتر chartrer بإلغاء (حق الصيد) كانت تنازلات الكنيسة كلها على حساب النبلاء . فقال دوق شاتليه لمن حوله مبتسما : (إن الأسقف يحرمنا من حق الصيد وأنا سأحرمه من حقه في العشور وقد كان) .وحين رفعت هذه الجلسة التاريخية في الثانية صباحا أعلنت الجمعية الوطنية أن لويس السادس عشر هو معيد الحرية إلى فرنسا كل هذا حدث في غمرة الحماس الذي يدعي بسخاء القلب وحب الحرية والمساواة والإخاء ولكنه في واقع الأمر حدث تحت ضغط ثورة الفلاحين حتى يعود النظام إلى الريف . ولم يكن خاليا من مكر الثعالب والمناورة لالتقاط الأنفاس .

كل هذا حدث شفويا ليلة ٤أغسطس ولم تتم صياغة القوانين إلا بين ٥ و١١ أغسطس وعند الصياغة حدثت بعض التراجعات فناورت الكنيسة لتسحب تنازلها عن العشور . ورغم اتخاذ القرار :

أن الجمعية الوطنية تلغى كلية النظام الإقطاعي إلا إن الجمعية الوطنية لم تلزم النبلاء بإثبات حقوقهم القانونية على الأرض التي يأخذون بموجبها الفرضة من الفلاحين . بعبارة أخرى تحرر الفرنسي في ٤ أغسطس من التزاماته الشخصية ولكن أرضه لم تحرر وعندما أدرك الفلاحون أن الإقطاع ألغى بالاسم فقط هاجت الخواطر ونظم الفلاحون المقاومة ورفضوا دفع حقوق الانتفاع الوهمية وكان على الفلاحين انتظار الجمعية التشريعية والمؤتمر الوطني ليجنوا ثمار٤ أغسطس .

وفي جلسة ٤أغسطس صباحا كانت الجمعية الوطنية قد

قررت أن تسبق الدستور ديباجة هي (إعلان حقوق الإنسان والمواطن) , وذلك رغم اعتراضات المعتدلين . فالأب جريجوار gregoireمثلا طالب بانتهاء الدستور بوثيقة مماثله هي إعلان واجبات الإنسان وكانت مناقشة المبادىء بطيئة وعسيرة ، مثال ذلك مناقشة حرية الرأي والعقيدة ففي موضوع حرية العقيدة طالبت الكنيسة بان ينص على أن يكون للدولة دين رسمي هو المسيحية الكاثوليكية , ولكن ميرابو عارض هذا بشدة على أساس أن هذا يتعارض مع حرية العقيدة . وكانت مناقشات (حقوق الإنسان) متأثرة إلى حد كبير بأفكار فلاسفة التنوير , فولتير voltaire ديدور Diderot مونتسكيو montesquieu دالمبير dalembert وبفلسفة روسو rousseau ولذا جاءت مبادىء هذا الإعلان لتخاطب الإنسانية جمعاء وليس فقط المواطنين الفرنسيين .

وفي ٢٦أغسطس ١٧٨٩ وافقت الجمعية الوطنية على إعلان حقوق الإنسان والمواطن الذي كان شهادة وفاة النظام القديم .

فهل انتهى كل شيء ؟ كلا لم ينته كل شيء على خير لان الملك رفض التصديق على مشروعات قوانين٥-١١ أغسطس ١٧٨٩ وعلى إعلان حقوق الإنسان قائلا: أنا لن أوافق على تجريد كهنتي ونبلائي من ثروتهم .

ولم يكن هناك ما يرغمه على التصديق الا اشتعال الفتن من جديد .

وأعاد لويس السادس عشر (نكر) وزيرا للمالية ولكنه فشل في إصلاح مالية البلاد لتوقف الناس عن دفع الضرائب وطرح نكر قرضا بمبلغ ٣٠ مليون جنيه ولكن الاكتتاب لم

يجمع بعد عشرين يوما الا٢٥ مليون جنيه .
بدأت مناقشات الدستور بعد إعلان حقوق الإنسان واقترح البعض إنشاء مجلس نبلاء على غرار مجلس اللوردات الانجليزي وان يكون للملك حق الفيتو على مشروعات القوانين .
ولكنٍ **سيز sieyes** اعترض على أي نوع من أنواع الفيتو قائلا : " لا يمكن لإرادة فرد أن تتغلب على الإرادة العامة. وإذا أمكن للملك أن يمنع إصدار القانون فأن أرادته الخاصة تجعله ينتصر على الإرادة العامة . إن أغلبية السلطة التشريعية يجب أن تعمل في استقلال عن السلطة التنفيذية . والفيتو المطلق أو المعطل للقوانين ليس إلا خطاب كاتبه , أي أمر اعتقال موجه ضد الإرادة العامة " .

هروب الملك وإعدامه

عندما هرب الملك لويس السادس عشر من باريس مع أسرته ليلحق بجيش النبلاء وبجيش الأعداء أعلن لافايين والجمعية الوطنية أن أعداء الشعب (اختطفوا) الملك لان إعلان هروب الملك يستدعي خلعه أو محاكمته وربما إعدامه ولو غيابياً وإعلان الجمهورية بإعلان دستور جديد غير دستور ١٧٩١ الذي كان مؤسساً على مبدأ الملكية المقيدة وهذه حقيقة ما حدث في ليلة ٢٠ /٢١ يونيو ١٧٩١ نحو منتصف الليل خرج لويس السادس عشر من باب جانبي من القصر وتصحبه أسرته وكان الملك متخفياً في زي خادم خاص وكان اكسيل فيرسن احد أصدقاء الملكة ماري أنطوانيت قد أعد خصيصاً للهروب مركبة ضخمة يمكن للأسرة المالكة أن

تتكدس فيها تحت ستار أن المركبة كانت تحمل خزائن من العملات الذهبية المرسلة إلى الجنرال بوييه لتمويل حاميته ووضعت نقط حراسة من الفرسان على طول الطريق من باريس إلى سانت منيهو وكان من المقرر أن يبلغ لويس السادس عشر مونميوي وكان تحف به من الجانبين كوكبة من الفرسان ولكن تأخر رحيل العربة الملكية من قصر التويلري خمس ساعات . ولما تأخر وصول العربة الملكية إلى شالون انصرف الفرسان في نقطة الحراسة التالية لثالون , ووصل الملك إلى فارين في ليلة ٢٢/٢١ يونيو .

ولم يجد فرسان الحراسة ، فتوقف فيها ليغير جياد عربته في احد الفنادق في سانت منيهو كمحطة لتغيير الجياد .عندها تعرف ابن صاحب الفندق على الأسرة المالكة حيث كانت العربة واقفة . فأقام المتاريس على معبر بنهر اير ليمنع مرور العربة ولما أراد الملك العبور وجد المعبر مسدوداً. ودق ناقوس البلدة فتجمع الناس في حالة استنفار وانضم إليهم الفرسان ممن كانوا يحرسون العربة متضامنين معهم . وفي صباح ٢٢ يونيو عادت العائلة المالكة في طريقها إلى باريس في حراسة مشددة تحفها من الجانبين كوكبة من الحرس الوطني جاءوا من كل القرى المجاورة وعومل الملك والملكة معاملة السجناء الفارين . وعرف الجنرال بوييه بالأمر ولكنه وصل بعد رحيل العربة بساعتين .

وفي مساء ٢٥ يونيو دخل الملك باريس وسط الصمت الرهيب. يحف به من الجانبين الجنود حاملين بنادقهم مقلوبة إلى الأسفل وكأنهم يسيرون في جناز الملكية , وكان البيان الذي كتبة لويس السادس عشر موجهاً إلى الشعب الفرنسي

وتركه في قصر التويلري قبل هروبه واضحاً تماماً في إعرابه عن نوايا الملك :

فقد أعلن انه ينوي اللحاق بالجيش النمساوي المرابط في بلجيكا , وانه ينوي العودة إلى باريس ليحل الجمعية الوطنية والنوادي السياسية وليوطد الحكم المطلق , ويذكر أيضاً ان لويس السادس عشر لم يكن ذلك الرجل البسيط الذي يصوره لنا بعض المؤرخين لإعفائه من المسؤولية عما حدث , بل كان على شيء من الذكاء وقد سخر ذكاءه لخدمة عناده الكبير وإيمانه المطلق باسترداد سلطته المطلقة ولو كان في ذلك خيانة لامته .

في الحقيقة إن هذه الصور مألوفة في يومنا هذا فهي تتكرر في الأنظمة السياسية المعاصرة ولكن بحنكة أكثر تطوراً .

اليوم والأمس لم يختلف كثيراً في التطبيق فما زال النظام السياسي لم يفهم بعد ان الاستمرار والتطور لأي نظام سياسي لا يعتمد بشكل أساس على القوة التدميرية التي يمتلكها أو على استخدام العقول في مراوغة الشعوب واستغلالهم . بل يعتمد بشكل أساس على درجة الانسجام والترابط بين أفراد السلطة وجمهور الشعب من خلال تحقيق وتوفير الحاجات الضرورية لاستمرارية الشعب ونموه ولا يتحقق ذلك إلا عن طريق العدالة في السلوك الداخلي والخارجي للنظام السياسي .

فعلى أفراد النظام السياسي أن ينظروا إلى موضوع حتمية الطبيعية بجدية وان يعوا أن السلوك المنحرف أو تسخير القدرة العقلية في الخداع أو (وهم الغاية) لاستغلال الشعوب وظلمهم أنهم في الحقيقة قريبون جداً من زوال نظامهم

كبعدهم عن المحافظة علية دون أن يشعروا أو يتلمسوا تلك النهاية , لان النظام السياسي كما ذكرنا هو وليد الظاهرة البشرية ويعيش في بيئتها , وباستمرار عدم انسجامه مع طبيعة الظاهرة فأن التفكك أو الانهيار حتمي لا محالة .

فرغم السلطة المطلقة والقدرة العسكرية التي كان يتمتع بها لويس السادس عشر إلا أن تاريخ ٢١ يناير عام ١٧٩٣م في الساعة ١١صباحاً شهد أعدم الملك بالمقصلة أمام شعبه وعلى يد جنده .

فرنسا ما قبل الثورة

أسباب الثورة

١- انحراف السلطتين الدينية والسياسية

كان المجتمع الفرنسي منقسماً على شكل هرم طبقي يجلس الملك على رأس الهرم ويليه النبلاء ورجال الدين وبعدها الطبقة الثالثة التي تتمثل بالبرجوازية المثقفة والتي كانت محرومة من المشاركة السياسية , ويقف الفلاحون والعمال وبقية الشعب الذي يمثلون الأغلبية الساحقة في أسفل الهرم وهي الطبقة المستغلة من قبل الطبقتين الأولى والثانية . فقد كان للنبلاء الارستقراطيين ورجال الدين حقوق كثيرة أكثر من بقية الشعب حيث لم يقوموا بدفع الضرائب التي كانت تقع على كاهل عامة الناس . وكانوا يتمتعون بالنفوذ وإمكانيتهم في الإفلات من العقوبات القانونية .

ان النبلاء يؤلفون المنظمة الثانية في المملكة والطبقة المسيطرة في المجتمع .

وكانت هذه الطبقة في أواخر القرن الثامن عشر تمثل عناصر شديدة التنافر ومتعادية فيما بينها, وكانوا يتمتعون بامتيازات شرفية واقتصادية وضرائبية مثل: حمل السيف, مقعد خاص في الكنيسة , قطع الرأس في حالة الإعدام بدل الشنق , وعلى الأخص الإعفاء من ضريبة الأعناق, وسخرة الطرق , وإسكان رجال الحرب , وحق الصيد, واحتكار الحصول على الرتب العالية في الجيش أو على

الرتب الرفيعة في الكنيسة, والوظائف العليا في القضاء . ومن جهة أخرى كان النبلاء الذين يملكون إقطاعية يجبون من القرويين الضرائب .

بينما كان العامة محرومين من ابسط هذه الامتيازات ، أما طبقة النبلاء المقيمين في البلاط وهم حوالي ٤٠٠٠ يعيشون في فرساي حول الملك . ويحيون حياة البذخ والترف معتمدين على الهبات التي يقدمها الملك لهم وعلى الأجور العسكرية ومداخيل وظائف بيت الملك والمداخيل التي تأتيهم من ممتلكاتهم الواسعة .

وكانت طبقة النبلاء تصرف أموالها على ترف اللباس واللعب والأعياد والحفلات والصيد . وكان القرويين يزدادون يوماً بعد يوم كرهاً للنبلاء وخاصة النبلاء المتشددين في فرض دفع الضرائب الإقطاعية بقسوة .

بينما رجال الدين الذين كانوا يمثلون ١٥٪ من المجتمع الفرنسي وكانوا يتمتعون بمراكز عالية جداً في بنية المجتمع اتخذوا القصور مساكن لهم و ادخروا التبرعات و عشور إيجار أراضي الفلاحين بأسعار كبيرة , ومنح صكوك الغفران باستغلال الدين والشعب لزيادة مداخلهم , فتركوا الجوانب الإنسانية التي تمثل جوهر التعاليم المسيحية وذهبوا لاكتناز الأموال والتدخل في الجانب السياسي والتحالف مع دكتاتورية الملك والارستقراطية , و بالتالي كانوا يشكلون جزءاً أساسياً من نظام فرنسا قبل الثورة , حيث تمتع أصحاب الدرجات الكبيرة من رجال الدين بثراء فاحش وغير عادل في المصادر والإنتاجية , ويتلقون إضافة إلى العشور وإيجار الأراضي الشاسعة العطايا والمناصب و القصور , التي كان

يمنحها الملك لهم بينما لم يكن يمنح الطبقة الدنيا شيئاً من ذلك , فكان رجال الدين يعيشون حياة الترف والبذخ التي لا تختلف عن حياة الارستقراطية .
أما طبقة الفلاحين والعمال التي كانت تمثل الغالبية الساحقة من المجتمع الفرنسي , لم يُكونوا طبقة واحدة تجمعهم مصالح مشتركة . فمنهم أصحاب الملكيات الزراعية , إلا أن كواهلهم أثقلتها الضرائب والحقوق الإقطاعية التي جعلتهم تحت تقلبات السوق وسوء المحاصيل , أما الشريحة الأكبر من الفلاحين . فكانت من المزارعين المستأجرين الملزمين بدفع إيجارات والتزامات مالية أو حصص مباشرة على شكل نسب ثابتة من المحصول لكبار الملاك . فالأرض لم تكن ملكاً لمن يفلحها , فالديون وخطر الإفلاس معاناة تظل تطارد الفلاح طوال حياته ، حتى انه يورثها لنسله من بعده, وكان الفلاحون يعملون في أراضيهم مباشرة وقد يستعينون بعدد من العمال الزراعيين الأكثر بؤساً , فكان ينظم إليهم باستمرار مزيد من الفلاحين المفلسين الذين نزعت أراضيهم وأصبح عليهم العمل كأُجراء في أراضي الغير .
وعليه فأن أوضاع الفلاحين في فرنسا ظلت في نطاق فلاحي العصور الوسطى , فكان الجهل والتخلف والفقر والمرض والمجاعة هي الصورة السائدة لدى حياة القرية الفرنسية, وفي الوقت نفسه كانت حقوق العمال الصناعيين مهضومة, وظروف عملهم صعبة جداً . بدون ضمانات قانونية أو حتى صحية , فقد كان يوم العمل في المصانع والورش يمتد أحياناً من الفجر حتى الليل , إضافة إلى ضعف القدرة الشرائية وهو ما يؤثر على الاقتصاد الفرنسي , مما يدفع الدولة الفرنسية إلى فرض المزيد من الضرائب

الباهضة على البرجوازية الصناعية والبرجوازية التجارية , لصالح الطبقات الريفية الحاكمة من الارستقراطيين . وكان هذا ينعكس بشكل سلبي على العمال الأجراء فقد كانوا يدفعون ثمن ذلك بصورة غير مباشرة , و بالتالي انعكس تحمل هؤلاء الأجراء ثمن أزمة النظام الإقطاعي , على مستوى معيشتهم , الذي ازداد بؤساً غير مسبوق عشية الثورة .

٢- التنوير السياسي

يعرف ايمانويل كانط التنوير بأنه : خروج الإنسان عن مرحلة القصور العقلي وبلوغه سن النضج أو سن الرشد, كما عرف القصور العقلي على انه التبعية للآخرين وعدم القدرة على التفكير الشخصي أو السلوك في الحياة أو اتخاذ أي قرار دون استشارة الشخص الوصي علينا .

أما التنوير السياسي فهو يعنى بالعلاقة بين السلطة والشعب , وهو مرحلة يصل إليها الفكر يتمكن من خلالها معرفة الحقيقة التي تختفي وراء وهم الغاية والأثار السلبية التي تعكسها على المجال الذي تشغله .

كان عصر التنوير حركة سياسية , اجتماعية , ثقافية , وفلسفية تطورت في أوروبا في القرن الثامن عشر , نشأت هذه الحركة في انكلترا ولكنها تطورت في فرنسا وذلك بسبب الظروف التاريخية التي عاشتها فرنسا في القرن الثامن عشر , حيث ان تطور الطبقة البرجوازية خلال عهد الملك لويس الرابع عشر كان مكفولاً بالاستبداد الملكي, ويقوم على التمييز بين الحاشية والعامة . حيث أعطى حرية العمل وحرية الفكر ولكن بما لا يتعارض مع السلطة. تطورت البرجوازية إضافة إلى حركات عديدة انظم لها المولون

الجدد ودائنو الدولة ولكن دون سلطة سياسية ومارست هذه الحركات نقدها للسلطة سراً وعلى شكل جمعيات سرية وكانت لهذه الحركات التنويرية المناهضة للسلطة دور في ان تصبح فرنسا الممثلة للتنوير بصورة عامة وقد تحول مفهوم التنوير ليشمل بشكل عام أي شكل من أشكال الفكر الذي يريد تنوير العقول من الظلام والجهل. إن أهم فلاسفة ومفكري عصر التنوير فولتير, جان جاك روسو , ديفد هيوم ومونتسكيو وجميعهم قاموا بمهاجمة مؤسسات الكنيسة والدولة القائمة وطالبوا بحقوق الناس وحرياتهم والمساواة بينهم والتي لم تكن موجودة في فرنسا وقتها .

وقد ألهم لمفكرون والفلاسفة الفرنسيون الثوار وزعماءهم ، مثل فولتير الذي انتقد الظلم الطبقي وسيطرة رجال الدين على عقول الناس وتدخلهم في كل صغيرة وكبيرة في المجتمع والسياسة واستغلالهم للطبقة الكادحة بينما هم يعيشون حياة الترف , ومونتسكيو الذي طالب بفصل السلطات التي كانت جميعها بيد الملك وسلطته المطلقة , وجان جاك روسو الذي طالب أيضاً بالحرية والمساواة .

فكانت لهذه الأفكار دور كبير في تعريف الناس بحقوقهم فألهمتهم وشجعتهم للمطالبة بهذه الحقوق وان عليهم أن يقرروا مصيرهم بأنفسهم وان يستخدموا عقولهم في معرفة الحقيقة وكيفية محاربة الظلم والفساد الذي كانوا يعيشوه .

فكان تطهير عدد كبير من الناس من الجهل السياسي إضافة إلى انحراف النظام السياسي والديني عن العدالة في توزيع الثروة والذي يعد انحراف عن غاية النظام التي تمثل الحاجة البشرية , عاملان أساسيان لحالة الصراع

والانهيار للسلطة الدينية والسياسية التي عاشتها فرنسا في تلك الحقبة .

المبحث الثاني
البقاء للأقوى

الحركة النازية

يرى راتزل ان السياسة الدولية ما هي إلا صراع بين وحدات وكيانات سياسية لا يصلح للبقاء منها إلا من هو قوي فيها. حيث تقوم الفكرة الأساسية التي ينطلق منها راتزل في صياغة النظرية على المقاربة العضوية بين دراسة الدولة كوحدة سياسية ودراستها باعتبارها كائناً حياً . وبما ان الكائن الحي ينمو ويكبر , كذلك الدولة تنمو وتتوسع فهو اعتمد على مسألة النمو واعتبرها قاسماً مشتركاً بينهما , وطالما ان النمو هو ظاهرة طبيعية بالنسبة للكائن الحي كذلك الدولة كنظام سياسي لا يجوز اعتراض عملية نموها فهي لا تتقيد بالاعتبارات المكانية ولا بالقيود الجغرافية, وان عملية النمو هذه لا تكتمل شروطها إلا بتأمين قدر مقبول من القوة . فالقوة هي المحفز الأساس لعملية النمو . فالأرض عند(راتزل) لا تكفي سوى دولة عظمى واحدة, فالدولة تتحرك في ديناميكية مستمرة حتى تحقق لنفسها متطلبات وجودها , وتضيف إلى قاعدتها الأرضية ما تراه ضرورياً لنموها حتى تختفي من الخريطة السياسية الدول غير القادرة على الصراع أو الاستمرار و بالتالي لا تبقى سوى الدول القوية الأكثر قدرة على البقاء والالتهام , وبعد ذلك تبدأ تلك الدول الكبرى القوية في التوسع على حساب بعضها حتى لا تبقى في النهاية سوى دولة عظمى واحدة . ولكن السؤال المهم الذي يطرح هو هل ان الكائن الحي

ينمـو ويكـبر معتمـداً عـلى القـوة في نمـوه ؟

فلسفة نيتشه

يقول الكاتب الصحفي الأستاذ احمد الشنواني:

(ليـس بـين كبـار المفكريـن والشـعراء مـن كان اشـد جـرأة وكبريـاءً مـن الفيلسـوف والشـاعر الألمـاني فردريـك نيتشـه , فقـد حـاول هـذا الرجـل ان يهـدم الأخـلاق والآداب المسـتمدة مـن نزعـة الرحمـة , وان يبـشر في حماسـة وشـبه جنـون بعقيـدة القـوة , وان يؤكـد ان القـوة المعنويـة والحسـية هـي رأس الفضائـل. وان المجتمـع الارسـتقراطي القـائم عـلى تمجيـد هـذه القـوة , هـو خـير مجتمـع يمكـن ان تصـدر عنـه أفضـل حضـارة. وكان مبـدأ (السـوبرمان) أو ــ الإنسـان المتفـوق ــ مـدار جـدل طويـل .

وسـواء أكانـت نزعـات نيتشـه الفلسـفية تطابـق عالمنـا المعـاصر اليـوم أو لا تطابقـه , فأنـه كان فيلسـوفاً أكـثر ملائمـة لحاجـات عـصره ومطالـب دولتـه إذ عـرف انـه فيلسـوف القـوة الأول .

وكان يـرى ان بـؤس امـة بكاملهـا ليـس بالأمـر الجلـل إذا قيـس ببـؤس رجـل عظـيم واحـد .

وقـد تراجـع نيتشـه عـن فلسـفته ومبـدأ (السـوبرمان) قبلمـا يصـاب بالجنـون , وقـد حـدث ذلـك عندمـا رأى نيتشـه حوذيـاً يـضرب حصانـه الضعيـف الضامـر في طريـق صاعـد وصعـب, فأشـفق عـلى الحصـان وأخـذ يـوبخ الحـوذي ثم اندفـع مـع بعـض المـارة لمسـاعدة الحصـان الهزيـل .

وعندمـا ذهـب فقـد اكتشـف هشاشـة فكـره وجنـون فلسـفته,

وقضى أحدى عشر سنة يصارع الجنون في المصحات العقلية في سويسرا حتى مات سنة ١٩٠٠ في فايمار .[١]

تاثر ادولف هتلر إلى حد كبير بفيلسوف القوة , وقرأ الكثير من كتبه وتشبع بها حتى انعكس ذلك على سلوكه وسياسته التوسعية إلى أيامه الأخيرة , فكان ينادي بضرورة قتل الضعفاء والمرضى الذين لا ينتجون للمجتمع إلا الشقاء .

أدولف هتلر :

هتلر سياسي الماني نازي ولد في النمسا عام ١٨٨٩ وكان زعيم حزب العمال الألماني الاشتراكي الوطني والمعروف باسم الحزب النازي حكم المانيا في الفترة مابين عامي ١٩٣٣-١٩٤٥ .

انظم هتلر إلى الحزب النازي في عام ١٩٢٠ وأصبح زعيماً له في عام ١٩٢١ وبعد سجنه اثر محاولة انقلاب فاشلة قام بها في عام ١٩٢٣ . استطاع هتلر ان يحصل على تأييد الجماهير بتشجيعه لأفكار تأييد القومية ومعاداة الشيوعية والكارزما التي يتمتع بها في إلقاء الخطب وفي الدعاية .

تم تعيين هتلر في عام١٩٣٣ مستشاراً للبلاد حيث عمل على إرساء دعائم تحكمها نزعة شمولية ودكتاتورية وفاشية , انتهج هتلر سياسة خارجية معلنة ذات أهداف توسعية تقوم بالسيطرة على مناطق حيوية لتأمين وجود المانيا النازية وضمان رخائها الاقتصادي ثم قام بتوجيه جميع موارد الدولة نحو تحقيق هذا الهدف .

بـنـاء القـوة

أجـبرت المانيـا عـلى توقيـع معاهـدة فرسـاي بعـد هزيمتهـا في الحـرب العالميـة الأولى والـتي حملـت المانيـا مسـؤولية الحـرب وأرغمتهـا عـلى دفـع تعويضـات للمتضرريـن , ممـا أثقـل كاهـل الاقتصـاد والشـعب الالمـاني بالكثـير مـن الأعبـاء الماليـة , وولـد ذلـك شـعور الالمـان بالذلـة والمهانـة والرغبـة في اسـترداد كرامـة الوطـن الضائعـة . بـدأت المانيـا برنامجـاً سريـاً لإعـادة التسـلح خارقـة بذلـك بنـود معاهـدة فرسـاي .

واسـتمر برنـامج محـدد النشـاط حـتى وصـول ادولـف هتلر إلى السـلطة عـام ١٩٣٣ حينئـذ أعـطي البرنـامج أولويـة أولى , ممـا أدى ذلـك إلى تقويـة العلاقـات الاقتصاديـة مـع بعـض الـدول الغنيـة بالمـواد الخـام الـتي تحتاجهـا في الصناعات العسـكرية .

اشرف هتلـر عـلى واحـدة مـن اكبر التوسـعات في مجالالإنتـاج الصنـاعي والتطويـرات المدنيـة الـتي شهدتهـا المانيـا طـوال تاريخهـا , وقـد اعتمـد في ذلـك عـلى أسـلوب تعـويم الديـون وزيـادة عـدد القـوات المسـلحة , كذلـك اشرف عـلى واحـدة مـن اكبر حمـلات تطويـر البنيـة التحتيـة في التـاريخ الألمـاني .

واشـتمل هـذا التطويـر عـلى إنشـاء العديد مـن السـدود والطرق السريعـة , وطـرق السـكك الحديديـة إلى جانـب عـدد أخـر مـن الإنشـاءات المدنيـة ، و قـام هتلـر بإعـادة تنظـيم الجيـش فبينمـا كان لـزام المانيـا أن يبـقى عـدد قواتهـا في حـدود ١٠٠,٠٠٠كان يتم تدريـب قـوة بنفـس العـدد كل عـام كمـا ان هتلـر عقـد معاهـدة مـع السـوفيت الـتي تقـضي بـأن تقـوم المانيـا بتدريـب الضبـاط

السوفيت وتطوير الصناعة السوفيتية في مقابل تمرن الالمان على معداتهم ودباباتهم وطائراتهم على الأراضي الشاسعة السوفيتية . أعطى هتلر لعملية إعادة التسلح أولوية قصوى وكان كل من فلهيلم فريك وزير داخلية المانيا , والاقتصادي النازي هليم شاخت الذي قام بعرض مجموعة واسعة من المخططات من اجل معالجة أثار الكساد العظيم الذي كانت فيه المانيا . وهما المسئولان الرئيسان في برنامج إعادة التسلح الالماني وتأسيس شركات وهمية مثل mefo من اجل تمويل إعادة التسلح , كما أنشأت منظمات سرية تحت ستار المدنية من اجل تدريب الطيارين تدريباً عسكرياً .

أحدثت عملية إعادة التسلح انتعاشاً في الحالة المادية لكثير من المصانع الألمانية مما نقل كثيراً من الصناعات التقليدية إلى صناعات كبرى تختص في بناء السفن , وإنشاء فروع جديدة بدأت في تصميم وبناء الطائرات , بالتالي أصبحت عملية إعادة التسلح الالماني فرصة للتغيير والتحسينات التكنلوجية في بعض الأحيان , وخاصة في مجال الملاحة الجوية حتى أصبحت المانيا تحتكم إلى قوة تمكنها من المجاهرة بعملية التسلح . وكانت الحرب الأهلية الاسبانية1936 - 1939 فرصة مثالية لاختبار كفاءة الأسلحة الحديثة التي تنتجها المصانع الالمانية خلال سنوات إعادة التسلح , حيث تم اختبار كثير من أساليب القصف بالطائرات من قبل قوات التدخل السريع الالمانية ضد حكومة الحزب الجمهوري على الأراضي الاسبانية وكان ذلك بأذن من الجنرال فرانسيس فرانكو . ورغم ذلك أصر هتلر على ان تصاميمه كانت سلمية على المدى البعيد .

المجال الحيوي :

كانت النازية تتبنى ما يسمى بمبدأ (المجال الحيوي) ويعني هذا المبدأ حق الدولة في التوسع على حساب الدول الأخرى . أي بمعنى الاستعمار ، في حال ضاقت مساحتها بعدد السكان , وكانت تسعى أيضاً إلى إيجاد مستعمرات جديدة لكي تكتمل مظاهر القوة العالمية الالمانية .

قام هتلر في عام ١٩٣٥ بالانسحاب من عصبة الأمم دون مبرر وفي عام ١٩٣٦ قام هتلر بتقديم مساعدات للجنرال (فرانكو) في الثورة الأهلية بأسبانيا كذلك قام موسوليني زعيم ايطاليا في الوقت نفسه بتقديم مساعدات له ومن هنا تقارب الطرفان (هتلر وموسوليني) وقاما بتوقيع اتفاقية محور (روما - برلين) التي سرى مفعولها ٢٧ أكتوبر عام ١٩٣٦ م وفي ١١ مارس سنة ١٩٣٨ طرقت الجيوش الالمانية أبواب النمسا بحجة رغبة النمساويين الألمان في الانضمام إلى المانيا , وصلت أنباء مطالب هتلر إلى فيينا بإقالة شووشنج - مستشار النمسا - وطلب تعيين رئيس وزراء من النازيين النمساويين ولما رفض رئيس جمهورية النمسا الطلب الأخير دخلت الجيوش الالمانية إلى النمسا . وفي ١٣ مارس كان هتلر بنفسه داخل الحدود النمساوية . واعترضت كل من بريطانيا وفرنسا وعصبة الأمم على هذا الاحتلال الذي لم تؤيده سوى ايطاليا .

وفي ٢٨ مارس ١٩٣٨ حركت برلين الحزب النازي في السوديت[١] وامرت بقيام السوديت بمطالبة الحكومة

(١) اقليم يقع في غرب التشيك على الحدود مع ألمانيا.

التشيكية بالاستقلال والانضمام إلى المانيا وأخذت الدعاية النازية تتحدث عن الاضطهاد والتمييز العنصري الذي تعانيه الأقلية الألمانية في تشيكو سلوفاكيا , قامت بعد ذلك القوات الالمانية باحتلال مواقع على حدود السوديت لكن الحكومة التشيكية صمدت أمام الضغط الألماني لمدة ستة أشهر, انتظر فيها هتلر أي ردة فعل من حكومة براغ ليتخذها ذريعة لهجوم شامل عليها ولكن تدخل الدبلوماسية البريطانية والفرنسية في تهدئة الحكومة التشيكية وانصياعها بتسليم السوديت وبعد الموافقة على التسليم بمقتضى معاهدة (ميونخ) التي وقعت في أكتوبر لم يمض أيام حتى احتلت الجيوش الألمانية الإقليم وضمته رسمياً للرايخ الألماني .

لم يكتف هتلر بذلك فقد استمرت الجيوش الالمانية بالزحف إلى عاصمة تشيكو سلوفاكيا واحتلالها في مارس ١٩٣٩ م , وفي ١سبتمبر عام١٩٣٩ اجتاح الألمان بولندا بحجة السيطرة على الممر البولوني ومنطقة دانزيج وهي منطقة غالبية سكانها من الألمان . وقد كانت مشاعرهم تميل نحو النازية وهنا أيضاً استخدم هتلر الأعلام في تحريك الأقليات الألمانية في شن حملات على الحكومة البولندية بحجة الاضطهاد والإرهاب الذي تعيشه في بولندا واستخدم المحطات في بث الأخبار الكاذبة عن توغل الجيش الالماني داخل بولندا وانه يسيطر سيطرة كاملة عليها .

بدأت الحرب بتحريك (٢٧٠٠) طائرة المانية إضافة إلى الجيوش البرية نحو الأراضي البولندية واستطاعت الطائرات الألمانية بتدمير الطائرات البولندية في مطاراتها ثم تقدم الالمان نحو دانزيج تساعدهم قوة بحرية المانية , بعدها تقدمت الجيوش

البرية نحو العاصمة وارسو واحتلالها .
و في ٩ ابريل عام ١٩٤٠ تحركت القوات الألمانية باتجاه الدنمارك والنرويج وخلال ساعات تمت محاصرة العاصمة الدنماركية (كوبنهاغن) . وخلال بضعة أيام سقطت اوسلو وترونديهايم ونارفيك , وكانت حجة هتلر في هذا الهجوم بأن البريطانيين زرعوا ألغاماً في المياه النرويجية . ثم في ١٠ مايو عام ١٩٤٠ هاجمت المانيا بلجيكا وهولندا هجوماً جوياً ساحقاً مما أدى إلى سقوطها ودخول الجيش الألماني بسهولة .
أما الحرب على فرنسا فأن هتلر لم يستغني عن الإعلام في هذه الحرب ايضاً فقد كان الإعلام هو الورقة الأولى التي يلعبها تمهيداً للاجتياح العسكري , فقد استطاع هتلر من تحطيم الرأي العام الفرنسي وانهيار معنويات الفرنسيين من خلال برامجه الإذاعية , ففي مايو عام ١٩٤٠ استطاع هتلر من غزو شمال فرنسا وسط دهشة العالم كله حيث كان الجيش الفرنسي يعد من أقوى الجيوش في العالم .
وفي ١٤ يونيو دخلت قوات هتلر إلى باريس دون إطلاق رصاصة واحدة , وتم وضع الإعلام النازية في كل مكان حتى فوق برج إيفل .

باربا روسا المحطة الأخيرة

رغم معاهدة عدم الاعتداء التي عقدت بين المانيا والاتحاد السوفيتي إلا أنه في صباح ٢٢يونيو ١٩٤١ اجتاحت الجيوش الألمانية الحدود الروسية بثلاثة ملايين جندي وما يقارب ٦٠٠ ألف آلية وعرفت هذه العملية بعملية (باربا روسا) .

وقفت بريطانيا إلى جانب الاتحاد السوفيتي بينما وقفت كل من ايطاليا ورومانيا والمجر وفلندا الى جانب المانيا سياسياً وعسكرياً , حدثت معارك طاحنة داخل الأراضي الروسية , فقد قام الالمان بالزحف في ثلاثة اتجاهات ستالينجراد , موسكو, أوكرانيا , وحقق الألمان نجاحات كبيرة فقد احتلوا (كييف) عاصمة أوكرانيا إلا ان تلك الجبهات أدت إلى إجهاد الألمان فمواردهم لم تكن كافية إضافة إلى مساحة روسيا الواسعة وحلول فصل الشتاء , جعل موقف الالمان يصبح دفاعياً أكثر من هو هجومياً.

حاصر الألمان مدينة (ستالينجراد) لمدة عامين أدى ذلك إلى وفاة عدد كبير من السكان نتيجة المجاعة ودفاعهم عن المدينة .

لم تتوقف المعارك في روسيا فقد استمر الصراع واستبسل الروس في الدفاع عن أراضيهم وبدأ الألمان يخسرون العديد من المواجهات في روسيا وتهاوت العديد من الجبهات الألمانية أمام الضربات الروسية . وفي ٢٥ يناير عام ١٩٤٣ استولى الروس على آخر مطارات الألمان في المنطقة وفقد الجيش السادس الاتصال بالعالم الخارجي.

ومن ٣١ يناير إلى ٢ فبراير استسلم الجيش الألماني بكامله ومن بين الذين استسلموا الجنرال (فون باولوس) ومعه ٢٣جنرال ٢٠٠٠ من الضباط و٩٠,٠٠٠من الرتب الاخرى ٤٠,٠٠٠ من غير المحاربين إضافة إلى الخسائر البشرية الكبيرة فقد توفي ٥٠,٠٠٠ أسير الماني خلال الأسابيع الأولى من أسرهم .

انهيار النازية

في نهاية عام ١٩٤٢م لحقت الهزيمة بالقوات الالمانية بقيادة (رومل) في معركة العلمين بمصر قضت فيها على كل محاولات هتلر بالسيطرة على قناة السويس والشرق الأوسط وفي عام١٩٤٣ انتهت معركة ستالينجراد بتدمير الجيش الالماني السادس و بالتالي اخذ الوضع العسكري والاقتصادي الالماني بالتدهور , وخلال عامي١٩٤٣-١٩٤٤اجبرت القوات السوفيتية الجيش الألماني على الانسحاب بكل ثبات على طول الجبهة الشرقية وفي ٦يونيو عام١٩٤٤ قامت جيوش الحلفاء الغربيون بعملية إنزال في شمال فرنسا التي اعتبرت واحدة من اكبر العمليات البرمائية التي حدثت في التاريخ العسكري . سخط العديد من الضباط والقادة الألمان على قرارات هتلر وسياسته الغبية التي أدت إلى إضاعة جيش كامل من اجل الوصول إلى موسكو ورأى بعض الضباط في الجيش الألماني أن الهزيمة حتمية , وعليه خططوا لإقصاء هتلر من السلطة .

وفي يونيو عام ١٩٤٤ قام (كلاوس فون) بزرع قنبلة في مركز قيادة الفوهرر لكن هتلر نجا من الموت بأعجوبة بعدما قام هتلر بإعدام جميع المشاركين في العملية من قادة وضباط . في الوقت نفسه كان الجيش الأحمر يجبر الألمان على التراجع إلى أوروبا الوسطى من الشرق وكانت قوات الحلفاء الغربيين تتقدم صوب المانيا , أدرك هتلر ان المانيا خسرت الحرب ولكنه لم يسمح بالانسحاب وأمر بتدمير جميع البنى

التحتيـة والصناعيـة لألمانيـا , وقـرر هتلـر ان الأمـة بأسرهـا يجـب ان تنتهـي معـه . فأمـر بتنفيـذ خطـة الأرض المحروقـة (تدمـير كل ينفـع العـدو قبـل الانسحاب مـن الأرض). إلا ان هذه الأوامـر لم تنفـذ , وفـي ابريـل ١٩٤٥ هاجمـت القـوات السـوفيتية ضـواحي مدينـة برلـين واسـتمروا بالتقـدم إلى قلـب العاصمـة . وجـد هتلـر نفسـه أمـام خيارِيـن أمـا الهـروب أو البقـاء والمـوت في برلـين ,لكنـه كان مصممـاً عـلى أن يعيـش في عاصمـة بـلاده أو يهلـك فيهـا . وفـي الثلاثـين مـن ابريـل مـن عـام ١٩٤٥ ووصـول الاشـتباكات إلى داخـل شـوارع برلـين والقـوات السـوفيتية عـلى بعـد تقاطـع أو اثنـين مـن مقـر استشـارية الـرايخ قـام هتلـر بالانتحـار بإطـلاق النـار داخـل فمـه وهـو يضـع في فمـه كبسـولة سـيانيد , وفـي الثـاني مـن مايـو استسـلمت المانيـا .

قال هتلر :

((أن فشل المانيـا في الفوز بالحـرب أدى إلى خسـارتها لحقهـا في البقـاء))

إلا يتفق هذا المنظور مع فكر راتزل[١] ونيتشه في الصراع!؟.

---

(١) عالم الماني ولد عام 1844م, صاحب كتاب الجغرافية السياسية ويعتبر المؤسس الأول لعلم الجغرافية الحديثة , درس في هايدلبرغ علم الاحياء والجيولوجيا والتشريح وله كتاب جغرافية الانسان.

المبحث الثالث
الانسجام

الديمقراطيـة

يقول أرسطو(ان الحرية هي أساس الدولة الديمقراطية)
في الحقيقـة ان الحريـة هي وجـه مـن أوجـه الديمقراطيـة أو صـورة لهـا ولا يمكـن ان نعتبرهـا أساسـاً للديمقراطيـة لان الحريـة تقـوم علـى أسـاس الـوعي ولا يمكـن ان نتصـور حريـة دون وعي , فالـوعي أو النضـج الفكري هـو القاعدة أو الأسـاس للديمقراطيـة ومـن خلالـه يتمكـن الإنسـان مـن التحـرر مـن جميـع القيـود, فالإنسـان دون وعي يبـقى عبداً حـتى وان منـح الحريـة .
ان النظـام السـياسي هـو وليـد الظاهـرة البشريـة وان غايـة النظـام هي حاجـة الظاهـرة ، وان حاجـة الظاهـرة هي مجمـوع غايـات المجتمـع ، وان غايـة المجتمـع هي انعـكاس لوعيـه وإدراكـه. فـأن طبيعـة النظـام السـياسي وشـكله هـو انعـكاس لـوعي المجتمـع وإدراكـه وعليه فـأن مسـتوى الـوعي للمجتمـع هـو العنـصر الأسـاس لطبيعـة النظـام السـياسي .
((يتأسـس الحـكم ذو النظـام الاسـتبدادي عـلى الجهـل , لان خضـوع الأفـراد يسـتلزم جهلهـم , ومـن ثم فالتعلـيم خطـر بالنسـبة لاسـتمرارية هـذا الشـكل مـن أشـكال الحـكم فطاعـة الشـعب وخضوعـه ..لا تتحقـق إلا بشـيوع الجهـل))

ـ مونتسكيو ـ

مفهوم الديمقراطية

إن لمفهـوم الديمقراطيـة معايـير متعـددة ومتغـيرة اختلفـت فيمـا بينهـا عـلى مـدى تطورهـا والمجتمعـات الـتي سـادت فيهـا أي أن الديمقراطيـة تختلـف مـن مجتمـع إلى آخـر ومـن فـترة

زمنية إلى أخرى . فالديمقراطية الأثنية التي نمت في القرن الخامس قبل الميلاد تختلف اختلافاً كبيراً في مفهومها عن ديمقراطية القرون الحديثة وحتى في الوقت الحاضر فأن الأنظمة الديمقراطية تختلف من دولة إلى أخرى .

يعرف قاموس الفكر السياسي الديمقراطية على إنها معيار أساس لتقويم الأنظمة السياسية أكثر منها شكل نظام من حيث هو كذلك , وهي تلح على قيمة الحقوق الانتخابية والمدنية وعلى قيمة الحرية الشكلية والمساواة اللتين تؤسسان النظام الاجتماعي .

ان مفهوم الديمقراطية متغير لا في جوهره بل بتغيرنا فهو ثابت في جوهره خاضعاً لإرادتنا . ان الأنظمة الديمقراطية هي أنظمة ساعية للديمقراطية , تسعى من خلال تجاربها وأخطائها تحقيق النظام الأمثل ألذي يلبي حاجاتنا وغير مهدد بالانهيار .

غاية الديمقراطية

تسعى الديمقراطية إلى تحقيق اكبر قدر ممكن من الحرية والمساواة وسيادة القانون وهي في حركة دائمة من اجل تحقيق هذا الهدف وان الاختلاف في الديمقراطيات هو بسبب اختلاف الرؤى في التطبيق .

ان تطور الديمقراطية عبر العصور هو نتيجة تطور الفكر الإنساني من خلال التجارب الكثيرة التي مرت بها الأنظمة السياسية , وان هذا التطور يعني الاقتراب شيئاً فشيئاً من القوانين الطبيعية التي تنسجم وطبيعة الظاهرة البشرية , أن الغاية المركزية للديمقراطية هي الوصول إلى تلك القوانين

التي تحقق الانسجام بين النظام السياسي والمجتمع والتي بدورها تحقق سعادة المجتمع المتمثلة بالاستمرارية والتطور ويعكس هذا التطور على النظام السياسي الاستمرارية والتطور هو الأخر .

وعليه فأن غاية الديمقراطية تتمثل في تحقيق العدالة , و أن النظام الديمقراطي يسعى باستمرار لتحقيق اكبر قدر من العدالة بجميع أشكالها , وبما ان غاية الديمقراطية هي تحقيق العدالة وبما ان العدالة هي القوانين الطبيعية فأن غاية النظام الديمقراطي تنسجم مع طبيعة الظاهرة البشرية وعليه يتحقق للنظام الديمقراطي الاستمرارية والتطور والانتشار .

فلو أحصينا الأنظمة الديمقراطية في الماضي والأنظمة الديمقراطية في يومنا هذا سنجد ان الديمقراطية قد تطورت وانتشرت على مساحات واسعة وان غالبية الأنظمة السياسية في العالم أصبحت اليوم أنظمة ديمقراطية أو شبه ديمقراطية

مفهوم العدالة

يمثل مفهوم العدالة مواضيع عديدة كالحرية والمساواة والأخلاق , فهي الإنصاف والمساواة والتوازن وعدم التعدي وحماية المصالح الفردية والعامة وهي مفهوم أخلاقي يقوم على العقلانية .

ان مفهوم العدالة لا يختلف اختلافاً كبيراً من مجتمع إلى آخر ولكن الاختلاف يوجد في التطبيق ، أن العدالة هي القوانين الطبيعية التي وجدت مع وجودنا , فأن تحقيقها يرتبط ارتباطاً وثيقاً بفهم القوانين الطبيعية التي تتعلق

بطبيعة الإنسان, والتي بدورها تنسجم مع الظاهرة البشرية، أما القانون الوضعي فهو من صنع البشر وهو انعكاس لوعيه وإدراكه للمحيط وكثير من الأحيان انعكاس لمشاعره أيضاً, وقد نصيب أو نخطأ في وضع قانون معين, وبالتالي يمكن لهذا القانون ألا ينسجم مع الطبيعة البشرية .
فالعدالة هي القاعدة الضرورية لاستمرار أي نظام سياسي وبدونها يعني الانهيار .

وأن هذا لا يعني أن النظام الديمقراطي هو النظام الأمثل , لأن كثيراً من الدول الديمقراطية هي في الحقيقة غير ديمقراطية , توجد فيها الانتخابات وتحوي المؤسسات المدنية لكنها تسير نحو التفكك و الانهيار , لافتقارها لعنصر المحافظة أو التمسك بغايتها الطبيعية , وذلك بسبب انحرافها عن العدالة التي هي الغاية الحقيقية للديمقراطية ، وذلك نتيجة ممارستها (وهم الغاية) الذي يسبب خللاً في الانسجام بين الظاهرة البشرية و الظاهرة السياسية والنظام الاقتصادي، و يكاد يكون وهم الغاية هو الصفة الغالبة على سلوكيات هذه الأنظمة .
أن تناولنا للديمقراطية كان بصورة مختصرة , لأن النظام الديمقراطي ، نظام شامل و واسع ، يدخل في مجالات عدة، كالاقتصاد و الثقافة , وهو موضوع جدلي يحتاج إلى أرضية واسعة للولوج فيه .
عسى أن أتمكن في دراسة لاحقة من التوسع في نظرية الانسجام بصورة عامة ، و النظام الديمقراطي بصورة خاصة ، و تبيان العلاقة بين النمو الاقتصادي و الثقافي

و السياسي بالنظام الديمقراطي ، و ما هي أسباب نكسة هذا النظام .

الخاتمة

اختصت هذه الدراسة في الفلسفة السياسية التي تقوم من اجل معرفة أو الوصول إلى العناصر الأساسية الواجب توافرها في النظام السياسي ليتمكن هذا النظام من الاستمرارية والتطور من خلال تحقيق السعادة للظاهرة البشرية ، فالسعادة هي المحور الأساس الذي تدور حولها هذه الدراسة وبما ان عالمنا اليوم تعصف به الصراعات التي ولدت المعاناة للإنسانية . تحتم على كل باحث في الشؤون السياسية محاولة البحث من اجل الوصول لبعض الحلول ومعرفة أسباب هذه المعاناة . إن ما توصلنا إليه في معرفة الأسباب يتلخص في الانحراف عن القوانين الطبيعية وذلك بسبب القراءة الخاطئة لتلك القوانين . ان إمكانيات الإنسان اكبر من التحديات التي واجهته في الماضي والتي تواجهه في الحاضر وهي قادرة على منحه حياة أفضل رغم التحديات ، ان اخطر ما يصيب الإنسان هو التوجيه الخاطئ للذات في تحقيق غاياته ، ان القراءة الخاطئة لقوانين الوجود ووضع النظريات على أسس تلك القراءة هي سبب معاناة الإنسان وهلاكه , إن الظاهرة البشرية هي جزء من نظام تحكمه قوانين موضوعية ، ولكي نحقق الغاية يجب الإلمام بتلك القوانين.

المصـــادر

١-ادولف هتلر , كفاحي , الطبعة الولى , دار الكتاب العربي , عرض وتحليل فريد الفالوجي , دمشق , ٢٠٠٥.
٢-ارنولد توينبي , مختصر دراسة التاريخ , ترجمة فؤاد محمد شبل , مطبعة عبادة كحيلة للنشر , ٢٠١١م , القاهرة.
٣- يوسف كرم , تاريخ الفلسفة اليونانية , دار آفاق للنشر والتوزيع , القاهرة , ط١ , ٢٠١٦.
٤-أيمن عيسى احمد , أدولف هتلر , دار الفاروق للنشر , مصر القاهرة , 2006.
٥- البير سوبول , تاريخ الثورة الفرنسية , الطبعة الثانية , ترجمة جورج كوسيه, منشورات عويدات , بيروت لبنان , ١٩٧٧.
٦-تامر سليمان محمد , الديمقراطية الغربية (بين مثالية الفكر وازمة التطبيق), بستان المعرفة للنشر , الاسكندرية 2010.
٧- جهاد تقي صادق , الفكر السياسي العربي الاسلامي, مكتبة السنهوري للنشر, بغداد , ١٩٩٣.
٨-يوسف كرم , تاريخ الفلسفة الحديثة , دار آفاق للنشر والتوزيع , ط١ , القاهرة , ٢٠١٦.
٩- السيد محمد باقر الصدر, فلسفتنا , الطبعة الثالثة , (انتشارات دار الصدر) مركز الابحاث والدراسات , ١٤٣١ق , قم ايران.
١٠- عبد القادر محمد فهمي , المدخل لدراسة الستراتيجية , الطبعة الاولى . مكتبة السنهوري , بغداد , ٢٠٠٤.

١١- فرانسوا فوريه , ديلي ريشيه , الثورة الفرنسية , الجزء الاول , الطبعة الاولى , دمشق , منشورات الهيئة العامة

السورية (وزارة الثقافة) , ترجمة صباح الجهيم , ٢٠١٢.
١٢- لاري دايموند , الديمقراطية (تطويرها وسبل تعزيزها) , دار المأمون للترجمة والنشر , العراق بغداد , 2010.
١٣- لويس عوض , الثورة الفرنسية , الهيئة المصرية العامة للكتاب , القاهرة , ١٩٩٢.
١٤-ويكيبيديا , الموسوعة الحرة . ar.m.wikipedia.org

ملخص عن الكتاب

ان إمكانيات الإنسان اكبر من التحديات التي واجهته في الماضي والتي تواجهه في الحاضر وهي قادرة على منحه حياة أفضل رغم التحديات ، ان اخطر ما يصيب الإنسان هو التوجيه الخاطئ للذات في تحقيق غاياته ، ان القراءة الخاطئة لقوانين الوجود ووضع النظريات على أسس تلك القراءة هي سبب معاناة الإنسان وهلاكه ، إن الظاهرة البشرية هي جزء من نظام تحكمه قوانين موضوعية ، ولكي نحقق الغاية يجب الإلمام بتلك القوانين.

07702697982
العراق - بغداد - شارع المتنبي
/dar.almurtadha /dar_almurtadha
دار المرتضى
طبع - نشر - توزيع